العَقلُ وَالنَّقل

لِلعَلّامَةِ مَوْلانَا شبير أَحْمَد العُثْمَانِيّ

تَرْجَمَة

عُمَر فَارُوق هَمَايُون

http://www.al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com

الكتاب: العقل والنقل

Title: AL-'AQL WAN-NAQL

التصنيف: دراسات إسلاميّة - علم الكلام

Classification: Islamic Studies - Theology

المؤلف: العلّامة مولانا شبير أحمد العثماني

Author: Al-Alama Mawlana Shubayer
Ahmad Al-Othmany

المترجم: عمر فاروق همايون

Translator: Omar Farouq Hamayoun

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah - Beirut

Pages	96	**عدد الصفحات**
Size	17 x 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2020 A.D. - 1441 H.	**سنة الطباعة**
Printed in	**Lebanon**	**بلد الطباعة** لبنان
Edition	1st	**الطبعة** الأولى

Dar Al-Kotob
Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-9152-6
9 782745 191526
90000

جميع الحقوق محفوظة
2020 A. D. - 1441 H.

العقل والنقل

للعلامة مولانا شبير أحمد العثماني

ترجمة

عمر فاروق همايون

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بسم الله الرحمن الرحيم

العقل والنقل لشيخ الإسلام مولانا شبير أحمد العثماني، نوَّر اللَّه مرقده، وجعل الجنة مثواه.

تعريب: العبد الضعيف: عمر فاروق همايون.

ويه نستعين

مقدمة المصنف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى: لما وقع الحرب والجدال بين مذهب الإسلام وفلسفة اليونان، فالمسلمون حكموا عليها حكما قطعيا بأسلحة علم الكلام المتينة الجيّدة، وحفظوا الإسلام بفصيلات متينة وأساساتٍ، لا تظهر المدافع الهدَّامة للحصون أثر مَّا فيها، وهذا القول خالي من المبالغة وليس فيها مكابرة بأن المتكلمين الذين وضعوا القوانين المتعلقة بالحجة والاستدلال قائمين على سطح المذهب، بها انكشف سرُّ جميع التوهَّمات الباطلة، وسقط طلسم المموُّهات الفلسفة اليونانية، وانكشف القناع عن سرِّ دسائس المعترضين، وسد باب اعتراضات المخالفين إلى يوم القيامة، ولكن الأسف بأن بعض قصاري النظر في زماننا لم يتسلَّوا به أيضا، وهم - لا يزالون - يفهمون علم الكلام غير كافي في حق ضروريات هذا الزمان - لهذه الأيام - والآن مضى زمن قليل بأن رفع هذا الصوت من الأوروبا بأن العلوم الجديدة جعل التذبذب في أساسات جميع المذاهب، وما استطاع مذهب من مذاهب العالم مقابلتها، والذين يكونون في انتظار وحي أوروبا لتصديق كل قول، هم آمنوا بها وعليها بلا قيل وقال، وأشهروا هذا التصور إلى هذا القدر بأن من ناحية إلى أخرى السمعة إلى هذا القيل، في كل مكان ومكان، ولما رأى العلماء أن الناس يتنفَّرون من المذهب، فتوجَّهوا إلى تحقيقه، ولكن ثبت بعد التفتيش بأن هذه الدعوى مشتملة على حصة قليلة من الواقفية، لا شك أن علماء المادة أوجدوا أقوالا جديدة حول الماديات، وأضافوا بيانات مفيدة في علم الهيئة (علم الأفلاك) وأروا العمليات العجيبة والغريبة في الصنعة وحرفة اليد، ونوَّروا العالم بالتحقيقات الجديدة المتعلقة بالبرق وبالضوء، ولكنهم لم يقولوا ولم يظهروا بأن أيّ أمر فيها مخالف للإسلام، أو أن في ثبوت ذلك الشيء - مثلا - يمكن أن

يرِد النقص على مسألة إسلامية، افترضْ أن عدد العناصر أزيد من ٦٧ أيضا، وسلَّم هذا أيضا بأن الأرض ليست بساكنة بل هي متحركة، وسلَّم أيضا أن الكواكب السيَّارات ليست بمنحصرة في السبعة، أَهَلْ جاء الخلل من هذا في ثبوت التوحيد، أم بطل منها دعوى النبوة، أم خالفت آية قرآنية، أم أنكر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما لم يكن منها شيء، فانظر الآن أهل زاد العلوم الجديدة في المسائل الإسلامية ردًا أو قبولا، فلا يستطاع أن يقال في جوابه سوى تلك الاعتراضات الركيكة والقديمة التي هي متداولة ومشهورة على الألسنة التي تتعلق - التي هي متعلقة - بحدوث المادة، والمعجزات، والحشر والنشر وغيرها، والتي حرّرها بعض مؤلفي زماننا سارحي الفكر بترتيب وتنسيق مَّا، ولكن الذين لم يحدِّدوا تكميل علم الكلام في دائرة شرح العقائد والخيالي، يفهمون جيدا بأن علماء الإسلام إلى كم أثبتوا ركاكة جميع هذه الشبهات وعدم قوتها وحياتها، وهم كم بالحسن والبسط كتبوا ردَّ هذه الاعتراضات، ليت قرَّاء رسالتي هذه يطالع الملل والنحل لابن حزم الظاهري، وكتاب الذخيرة للعلامة علاء الدين الطوسي، وشرح المقاصد للعلامة التفتازاني، وتهافت الفلاسفة للإمام الغزالي، والتصنيفات النادرة لمحققي هذا الفن، التي يظهر لهم منها صداقة بياننا هذا وجها بوجه.

وقول هذا القول أسهل من إثبات هذا بأن في ضوء العلوم الجديدة انمحقت العلوم القديمة، وثبت في مقابلتها تحقيقات المتقدمين عبثا، وبمجيئها في الدنيا واجه المذهب الموت، هل مدعو هذه الدعوى يستطيعون أن يمنّوا علينا باعطاء الفهرس لتلك المضامين الخاصة التي لها دخل مّا في إحداث دلائل الإسلام ومتكلمي الإسلام، والتي لم يبحث عن صحتها وسقمها بحثا كافيا طويلا، علم الكلام القديم، والتماسنا من الناس الذين يظهرون عجز العلماء الموجودين حالا وفي الحال، وفي هذا الزمن الراهن، عن مدافعة الهجمات الموجودة، بأن يعطونا فردا مستعدا - يستعدونه - بالمسائل مع الدلائل الذي لا يمكن مقابلته لإسلامنا الهرم - القديم -، ونتيجة في الآخر يترحم سي ايس آي الشجاع على هذا الهرم الذي يحدث له ضرورة الاصلاح الكثير فيها، لكي يمكن أن يقدم هذا الإسلام المحرّف

- المرمّم - في نظر شباب الأوروبا وقيعا وذا عظمة، وعلى كل حال، من شاء فليقل ما شاء لجهالته، ولكن الإنصاف هذا بأن المتكلمين اجتهدوا وعملوا بما يتعلق بالعقائد الإسلامية جهدا وعملا بالدقة والنكت الفلسفية، فأفرغونا من حل الاعتراضات العويصة لمخالفي الإسلام الداخلين منهم والخارجين، فمنّوا علينا إحسانا، وأستطيع أن أقول بالجرأة بأن الآن أيضا وكلاء الإمام أبي الحسن الأشعري وأبي المنصور الماتريدي - رحمهما الله تعالى - موجودين في العالم الذين يستطيعون أن يثبتوا علم الكلام القديم كاملا ومكملا، باستئصال جميع تلك الشبهات التي هي في أسلوب وثوب جديد، التي تتعلق بالمعتقدات الإسلامية.

ونحن نسمع مرارا من الأصدقاء الذين يقولون بعلم الكلام القديم ناقصا، بأنه يبحث في علم الكلام القديم بما يتعلق بالعقائد الإسلامية فقط، لأن الاعتراضات التي كانوا يعترضون مخالفي الإسلام في ذلك الحين، هي كانت متعلقة بالعقائد، ولكن في هذا الزمن يفحص المذهب من ناحية و حيثيّة كل من التاريخ والأخلاق والتمدن، وعند أهل الأوروبا عقائد أي مذهب ليست قابلة للاعتراض إلى القدر التي هي - موردة للاعتراض - المسائل القانونية والأخلاقية، فعندهم كون تعدد النكاح، والطلاق، والرقّية، والجهاد، جائزا في مذهب مّا، من أكبر الدلائل على بطلان ذلك المذهب، فلهذا لا بد من البحث في علم الكلام من مثل هذه المسائل أيضا، وهذا الطرف ليس موجودا، وهذه الحصة ليست بموجودة في علم الكلام القديم قط، وقول أحبابنا هذا صدق بأن تعلق علم الكلام القديم بالعقائد فقط، ولم يبحث فيه من المسائل القانونية والأخلاقية مطلقا، وإذا لم يفعل المتكلمون هذا فماذا - عساهم - يفعلون؛ لأن مقصد علم الكلام كان محدودا على العقائد، وكانت الحاجة لعلوم أخرى لهذه الأشياء والمباحث، فلهذا رفعت هذه الحاجة فنّ التصوف والأخلاق وعلم أسرار الدين، وأظهر الأسرار الخفية لجميع جزئيات الإسلام، الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والنكاح، والطلاق، والجهاد، بغاية التفصيل، والتصنيفات الثمينة للإمام الشاه ولي الله - رحمه الله - ومولانا محمد قاسم النانوتوي - رحمه الله - موجودة ومتوفرة في هذا الزمن أيضا بالكثرة، التي

بمطالعتها يمكن تصديق كلّيّ لبياننا هذا، وفي ذيل هذا العنوان في سلسلة المقالات والمضامين الذي أردت كتابتها، فأراعي فيها أن أقتبس الاقتباسات المفيدة من هذه التصنيفات القيمة، الكثيرة الجدوى والفائدة، حسب الحال والموقع، وعلى كل حال الغرض الذي دوّن علم الكلام لتكميله، فهو عندي حصل النجاح الكامل في ذلك المقصد، والآن قصدي أن أري حول كل باب للعقائد الإسلامية في صورة رسائل عديدة، بأن علماء الإسلام إلى أي حدّ التحقيق أوصلوها فتركوها، والآن إلى أيّ حدّ نحن نحتاج في ترميمه وإصلاحه، ولكن قبل شروعي في مقصدي الأصلي كما أنه لا بد من ذكر بعض تلك المقامات العديدة التي بدونها وبغيرها لا يستطيع أن يكون مقصدنا متمكنا في القلب، كذلك نعلم مناسبا أن يُطّلع على تلك الأغلاط الخطيرة، التي سلمت في المسلمين عموما أصولا، والتي يمكن أن تزاحم وأن تكون مزاحما لقراء رسالتنا - وناظريها - في فهم بعض المقاصد الأصلية أماما، ولكن الأمر الأهم وطويل الذيل الذي حمّلت مسؤوليتها، والتي يبدأ باسم الله تعالى فيها من هذه الرسالة، هي تصل إلى الغاية وقت تشجيعي وحفز همتي بكلمات الخير، من قراء رسالتي هذه، ويكون توفيق الرب شاملا للحال، ولا عجب إن رأى بنظر الاستحسان لحصة مّا لهذا المضمون اللاشيء، فأن نجترئ على موازنة مسائل الهيئة القديمة والجديدة، حسب باعنا وقوتنا، وإن كانت الحياة - باقية - فنتفكر إن شاء الله تعالى في جهد زيادة المعلومات حول العلوم الجديدة، وفي تكميل هذا المقصد، وقبل أن نقوم بتحقيقات مفصلة للأصول الإسلامية من التوحيد والرسالة والجزاء والعقاب وغيرها، في رسائل مستقلة بلا شائبة التعصب، يناسب ذكر أمور عديدة في هذه الرسالة التي لا تخلوا عن قسم من طرفة القلب، علاوة عن إمداده في هذه المباحث، لأن هذه الأمور في الحقيقة تكون قوانين التي صحتها تكون مبنية على تلك المحسوسات والبديهيات التي هي قابلة للإطمئنان ومطمئنة من كل جانب، وبميزان هذه القوانين الصادقة سنستطيع أن نمحّص المسائل الإسلامية جميعا في الآتي، لأن هذه المقدمات تكتب على غرار تلك الأصول الموضوعة التي تقيم باستنادها أكثر أسس بياناتنا وكتاباتنا، فالآن لو رأى أحد - أو يرى - من

هذه الأصول مشتبها أو غلطا، فله أن يظهر اعتراضه بالرغبة الكبيرة والكثيرة، ولكن عليه أن لا يكتفي في ثبوت دعواه على ذكر أسماء شيوخ الأوروبا، حتى لا يكون عنده دليل قطعي كما سنقدمه مع كل دعوى ودعوى، أو مثل الدلائل التي يطالبونها منّا بأنفسهم، وإن كان يتصور ذلك الشخص المهارةُ في العلوم الجديدة حفظَ أقوال المصنفين الفرنسيين والألمانيين، فإن كان بحمد الله لا نرى أنفسنا عاجزين عن أجوبة مثل هذه المباحث، ولكن عندما نواجه من مثل هذه التأويلات البعيدة عن المقصد والعمل فلا حاجة لنا إلى الالتفات إليها، فلهذا نلتمس في خدمة مثل هؤلاء الناس بأن من فضلهم بأن لا يضيّعوا وقتهم ولا وقتنا الثمين أبدًا، ولكن إلى حين قليل بإغضاء وترك فنّ التكلم والتعصب والهوى، يتوجهوا إلى سماع هذه المطالب القيّمة من قلوبهم الهادئ البارد، مقدمين لأنفسهم مسؤولية الحساب - أمام الله لكل قيل - التي جمعت بعد عرق وجهد جهيد، والتي ستقدّم وستظهر إلى المنظر العام لنصح بني نوع الإنسان.

فلما أن سلسلة هذه المضامين إن شاء الله ستقام إلى زمن مديد، فلهذا نرجو من محبّي العلم بأن يجمعوا سلسلة هذه المضامين في مكان واحد، لأنّه لو جاءت الإحالة في الأولى على الثانية، أو الأخرى على الأولى، فيستطاع أن يرى ذلك المقام بلا تكلف.

وبعد هذه الهدايات جميعا فنحن نشرع مقصدنا الأصلي، ومتمنّين بأن قرائها يستعدّوا لتشجيع النية البارّة والعادلة، مطهّرين قلوبهم من جميع الوساوس والأوهام القديمة ومقدمين أمامهم: لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

العقل والنقل للعلامة شبير أحمد العثماني

من المسلّمات عند كل فهيم أن اتباع النقل الصحيح، أو العقل السليم الكامل، من الفرائض والواجبات الأولية للإنسان، ويتوقف إحراز الكمالات العظيمة والفلاح الحقيقي على إطاعتهما، ثم عند أهل التحقيق لا يمكن الخلاف والخصومة في هذين الحاكمين - العقل والنقل - إلا في صورة - واحدة وهي - أن يكون صحة النقل مشكوكا، أو يقع النقصان والفتور في سلامة العقل، يعني: يكون في سلامة العقل فتورا ونقصانا، وإذا يُرى من وجه ما في واقعة وصورة ما، الخلاف فيما بينهما، فيحدث في فكر الإنسان وتصوراته تزاحم قوي وتذبذب عريض، وبهذا التجاذب من الطرفين يعرض له صعوبة ويقع في عسرٍ بأنه يقبل حينئذٍ حكم من؟ ويردّ حكم من؟ وإن كان يريد تعميل حكمهما فأي صورة تكون لها؟ وماذا يمكن أن تكون صورته؟ وإن كان يريد ترجيح أحدهما على الآخر فلأي وجه - وسبب وعلة -؟ فلأجل هذا أولاً بل من أصعب المرحلة (التي لا نستطيع أن نصل بغير تقرّرها إلى مدّعانا الأصلية) هي أن يخلّص هذا الجدال القديم بين العقل والنقل، الذي ضُحي لأجله في القرون الماضية، مئات العقلاء، وكثير من الفضلاء، و - الذي لأجله - سحب كثير من الناس الأبرياء على ألواح الصلب، وصلب كثيرمن الناس الأبرياء لأجله، وإذا تمكن أهل العقل في مكان - في أي زمان - واستحكمت أقدامهم وقوّاتهم، لم يألوا جهدهم في استئصال أهل النقل، وإذا كانت السيادة وجاءت الغلبة، لحمقاء متّبعي أهل النقل، فما اقترحوا في عقوبة خصمهم أقل من قطع رؤوسهم، أو إحراقهم في النار!

فالآن ننظر ما الحقيقة الأصلية لهذا الاختلاف بين العقل والنقل؟ وهل يمكن في هذا النزاع المهيب الصورة الصحيحة للتطبيق؟ وهل اجتهد أهل ملة ومذهب ما للتطبيق بينهما، وهل نجح من هذا المطبقون ومن أصحاب هذا التطبيق، رجل مّا في سعيه؟ فهذه هي الأسئلة التي يفترض التدبر فيها على أهل كل مذهب.

فالآن نحن نبحث عن هذه الأمور المهتمّة شأنها بالطريقة الكاملة بأسلوب سهل بحيث يشترك فيه العام والخاص، والعالم والجاهل، والذكي والغبي، ويأخذوا منه حصتهم بالتساوي وسواسيّة.

اختلاف العقل والنقل:

وبالاطلاع على الروايات القديمة والقديمة نجد دليلاً وثبوتًا بأن هذا النزاع للعقل والنقل وتخالف الطرفين وتجاذبهما فيما بينهما، ليس مخصوصًا بقومٍ أو دولةٍ أو مذهبٍ وملةٍ، بل وجد دائمًا هذين القسمين من الطبيعتين في كل طبقة وفي كل مكان وفي كل حصة من العمرانات الإنسانية والمجتمعات البشرية، وإذا فرض عهدٌ في حق قوم لأعلى درجة التوحش والغباوة والظلمة العامة، فيوجد فيها أيضا كأمثال الأقوام المتمدنة، قسمين من الأفكار والتصورات، فبعض الناس يكونون مقيّدون لعقولهم ومحكومون لأفكارهم إلى درجة أن الشيء الذي يكون خارجا عن عقله وإدراكه، لا يعدّه موجودا في الواقع، وعلى العكس يكون عادة بعضهم أنهم إذا سمعوا لفظا وقولا من أي شيخهم النّسبي، أو من قائدهم المذهبي ومن مقتدى مذهبهم فيضعون رقبتهم ويخضعون رؤوسهم، ويذعنون أمام حكمهم بلا قيل وقال، ولكن بشرط أن حصل لهم الاعتماد الكامل على قدوة مقتداه.

وبعد هذا يفتح باب الطعن والتشنيع في ما بين هذين الفئتين؛ فالجماعة الأولى تعدّ الثانية ساذجا وناقص العقل وأحمقا، والثانية يقرّر الأولى مسيء الأدب ومغرورا وعاصيا، وهكذا تدريجا وشيئا فشيئا يلتهب نار الحسد والبغض فيما بينهما، وتسبق هذه الأمور اللسان والقلب حتى تصل النوبة والفرصة إلى الجدال والخصومة باليد والجسم، يوجد هذا كله، ولكن لا يحلّ الأمر المتنازع فيه به أيضا، ولكن من طريف ما جرى أنه في بعض الأحيان يكون القولين لشخص واحد والقولين لكتاب واحد ويكون فيه طرفا التناقض وجانبا التعارض، ولا يكون غاية لتعجبنا ونهاية لحيرتنا إذا رأينا - أو نرى - مثل هذا التعارض في كتاب دينيّ مذهبيّ الذي يُعدّ خاليًا من الخطأ والنقصان عند أهل فرقة وملة.

عبارة واحدة من أمثال سليمان عليه الصلاة والسلام: - فمثلا - إذا قلّبنا صفحات كتاب موسى - عليه الصلاة والسلام - فنلاحظ فيه هذه العبارة في الباب الثالث لأمثال سليمان: "توكَّل على الله من جميع قلبك، ولا تعتمد على فهمك، قرّره في جميع سبلك يرشدك، لا تعدّ نفسك عاقلا في نظرك، اتق الله واجتنب عن العصيان، هذا صحة لسرّتك، وعافية لعظامك".

وفي هذه الأمثال في الباب الثامن كتب: أَوَلا ينادي فهم ولبٌ؟ ولا يرفع العقل صوتا؟ هي تقوم عند الشارع العام على ذروة المقام العالي، وتقوم على سقيفة الراعي، وتصيح قرابة الدرب والبوّابة عند مدخل البلد الذي يدخل منها في الأبواب، يا أيها الناس أنا أدعوكم، وأرفع وأقدّم صوتي لنحو بني آدم، أيها الحمقاء والسفهاء إفهموا العقل، وأيها الجهلاء، أوجدوا العقل الفهيم العاقل، اسمعوا: أقول مقالة لطيفة، وتخرج من شفتي الأقوال الصادقة إذا فتحت (وإذا فتحت شفتي فتخرج منها الأقوال الصادقة) لأن فمي تقول صدقا وصدقا، وتكره شفتي الشرارة، وأقوال فمي كلها مملوءة من الصداقة، ليس فيها الإعوجاج ولا التشدد، وأقوالي كلّها مستقيمة عند ذوي الألباب، وهي في خيال الذين يرون الحقيقة والرائين للحقيقة صدق.

والرسالة التي كبتها "باول رسول" إلى الروميين ألفاظها هذه : "وبالجملة! أنا أعبد بعقلي شريعة الله تعالى، وبالجسم أطيع وأعبد الذنب والإثم" فيظهر من هذا عيانا أنه كان يتّبع دين الله وشريعته اعتمادا على عقله.

ولكن على خلافه والعكس الرسالة التي كتبها باول رسول إلى الكرنتهيو فعبارتها هذه: "وعبارتي ووعظي ليس بالقول الفاتن، المعجب للقلب، للحكمة الإنسانية، ولكن كان مع دليل الروح والقدرة، لكي يثبت إيمانكم بقدرة الله تعالى لا بالحكمة الإنسانية، ونقول أقوال الحكمة عند الكاملين، لكن لا نقول حكمة هذا العالم وحكمة حكامها وملوكها الفانيين، ولكن نقول حكمة الإلهي التي هي مستورة، يعني: الحكمة المستورة التي قرّرها الله تعالى أمام الزمان لشرفنا ومجدنا".

ثم يكتب في هذه الصفحة: "فالآن نحن قد وجدنا الروح الذي يكون من الله تعالى لا روح الدنيا؛ لكي نفهم الأسرار التي أعطانا الله تعالى، ولكي نعلّم هذه الرموز والأسرار الإنسانَ لا بالأقوال من أنفسنا، بل بالأقوال المعلّمة من روح القدس، فالحاصل نبيّن الأشياء الروحانية باقترانها مع العبارات الروحانية، ولكن الإنسان النفساني لا يقبل أقوال روح الله تعالى؛ لأنها أقوال الجهالة عنده، وهو لا يفهمها؛ لأنه يثقل روحانيا".

وفي الشريعة المحمدية أيضا يوجد كلا القسمين من المضامين والعناوين، وفي حديث قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم - في معنى الحديث -: يدخل الناس الجنة على وفق درجات العقل، وفي مقام آخر: أكثر أهل الجنة بله، أيضا مشهور.

الإمام الغزالي ومسألة العقل:

وبعد ذلك العلماء والحكماء الذين مضوا من أمته - صلى الله عليه وسلم - فأقوالهم أيضا في الظاهر متعارضة، وقليل من العلماء إلى زمن الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى وإياهم - من توجّه إلى هذا ومن صرف عنان توجهه إلى هذا، ومن الذين قد بحثوا على هذا الاختلاف بين العقل والنقل مستقلا ورسميا وكاملا، ورفعوا الشبهات، وأزالوا الكدورات، فأروْا وأظهروا بأن هذا الاختلاف أصل منشأه ماذا؟ وأن استدلالات كلا الفريقين إلى أي درجة صحيحة، والاختلافات التي تُرى ظاهرا في كتب الأنبياء وأكابر العلماء (الذي أشرنا إليه سابقا أيضا) ما الصورة الصحيحة لاجتماعها وتطبيقها؟ وليس قصدي ومرادي قط بأنه لم يفهم أحد قبل الإمام الغزالي صورة التطبيق بين العقل والنقل، بل قصدي بأن الضرورة لم تكن داعية إلى توضيحٍ خاصٍ لهذه المسألة قبله؛ لأن حكماء كل عصر وزمن يبيّنون بالتأكيد والتفصيل الأمور التي تكون فيها قسم من الخِفاء، أو تكون فيها شبهة المغالطة، أو خوف المغالطة والغلط، أو هي تكون أمراض ترى الطبائع العامة مبتلى فيها.

قدِّر بنفسك، وتدبر بعقلك، أن طاعة الوالدين والترحُم والشفقة على الأولاد والأبناء مع أن كلاهما من الضروريات المذهبية، والحاجات الدينيّة، ولكن الأول هو خلاف رغبة النفس، وهوى الإنسان، قسما مّا ودرجة مّا، والثاني ليس فقط من اقتضاءات الطبيعة الإنسانية وحيدًا، بل من اقتضاءات طبيعة جميع الحيوانات أيضًا، فلهذا بقدر ما علّم الحكيم المطلق بالعناوين المختلفة قبحَ ومفاسدَ عقوق الوالدين وحسن إطاعتهما بكرات ومرات وبالإجمال والتفصيل، لا يوجد في أحكام "الرحم على الأولاد" عشر عشيرها أيضا.

وهكذا بعينه في زمن علماء السلف لما كانت لا تجوز استبدال الروايات والرسومات و العادات، والطرق المذهبية عند أيّ أهل مذهب مّا، فلهذا كانت لا تقوم الخصومات في العقل والنقل كثيرا، وكانت لا تأتي النوْبة للعلماء للتحكيم فيما بين مقدّماتهما، ولا يحتاج إلى أن يبيّن أصول تطبيقهما أو يذكر أسباب اختلافهما.

وبعد ذلك لما مضى الزمن نجما نجما غلب لون الفلسفة والإلحاد، والعقول الناقصة الجزئية نفقت سوقها، ونقص قدر ومرتبة النقل ومنزلتها ومقامها، فبقدرها زادت منازعة العقل والنقل، وأحسّ بالضرورة في زمن الإمام الغزالي - رحمه الله - إلى وضع قوانينٍ لموافقة العقل والنقل واتحادهما، وأن يعيّن حدود كل واحد منهما بالتفصيل والإيضاح، فرفع الإمام الغزالي رحمه الله، القلم على هذا الموضوع، والحق أنه أكمل هذا المقصد إكمالا تاما على وفق مقتضيات عصره، وحسب ضروريات أوانه، ولكن لما لم يحتاج علماء السلف إلى هذا التعيّن والتفصيل، واكتفى العلماء الذين جاءوا بعد الإمام الغزالي، بالإحالة على تشريحاته، فلأجلها اجتمعت الأقوال المبهمة والمتعارضة في العقل والنقل كثيرا قبله وبعده، فمِنْ هنا تهيأت الفرصة جدًّا لقصار النظر لإضلال العوام الساذجين، وأتوا في استشهادهم بالقطع المختلفة لكلام الأكابر حينا فحينا الذي جمعه الإمام الغزالي رحمه الله وبيّنه وأظهره، على طريقة حسنة في كتابه إحياء علوم الدين وغيره، يريدون به إضلال المسلمين الصادقين المستقيمين عن طريق الحق، فأنقل الآن في الذيل أكثر

الكلام من هذا النوع اختيارا وانتخابا من كتب الحكماء والعلماء، الذي يقع بقراءته خالي الذهن في أشد تحيّر وتذبذب، ثم أهدي للناظرين والقارئين محاضرة مفصلة والتقرير التفصيلي للإمام الغزالي رحمه الله اقتباسا من تصانيفه المتفرّقة، الذي سيمْحو هذه الحيرة والقلق إلى حد كبير وكافي.

نعم هذا موجود ضرورة وبداهة بأن المخالفة بين العقل والنقل التي ترى في هذه الأيام، ومضى زمن رفع السفراء من الحاكمين والحكومتين والسيطرتين، وبعد إعلام الحرب وإعلانه تخاصم الأراء تسلسلا، ثم القتال أيضا ليس على قاعدة وضابطة، بل عقل الحال بعد شدِّ مئزره على الغدر بعد تشمير ساعده على الغدر، شرع وبدأ في العمليات الجبرية المحضة.

فلِما أن هذا الربيع أو الخريف - التقدم والتأخر العصري الراهن - ما رأى الإمام الغزالي ولا قبله أحد، فنظرًا إلى تخصّصات هذا الزمن لو كان هناك أي نقص مّا مثلا، في تقرير الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فسأظهره بحريّة، ثم لو كان هناك تقرير آخر لعالم آخر أسكن وأسلى من تقرير الإمام الغزالي فسأكتبه وسأذكره في الأخير، لكي يوازن من قراء رسالتنا الذي عليهم أثر ما والذين تأثروا من الحرية المتخوفة المهيبة في هذا الزمن، جميع الآراء من أولها إلى آخرها، فيقبلوا الصدق والحق مع برّ قلوبهم، وصفاء معدنهم.

أبو علي سينا والعقل:

ونرجع أولا إلى مدافعي العقل، المشهورين والمعروفين عمومًا بلقب "فلاسفة الإسلام" أو بـ "حكماء الإسلام" والذين قد صرفوا أكثر حياتهم في اتباع العقل، ومن سلفهم الشيخ أبو علي سينا وابن رشد الأندلسي إمامان كبيران جدا لهذه الجماعة والطائفة، وقد انعقد الشيخ في آخر الإشارات بابًا مستقلاً بأن كثيرًا من علوم الأنبياء والأولياء يمكن بأنها تكون عالية من مرتبة العقول المتوسطة، وتكون صحيحة في الحقيقة، ولكن عموما لم يفهمها الناس؛ لأن العلوم والإدراكات التي يحصّلها في الإنسان هو شيء لطيف يعبر عنها بـ "الروح" ولما قرّر مبنى حصول

العلم ذلك الجزء اللطيف، فبقدر ما يزيل ويزال كثافة الجسم بالرياضات والمجاهدات، بقدرها يُترقّى في لطافة الروح، وبازدياد اللطافة وتوسعها يتوسّع في العلوم يقينًا، ولِما أن الأنبياء والأولياء بعد تركهم اللذّات وكسرهم للشهوات، يكونون غرباء وبعيدون مجانبين لكثير من التعلّقات الجسمانية، فلهذا لو علموا الأنبياء والأولياء كثيرا من الأقوال والأشياء التي لا نعلمها، فهذا ليس أمر يستعجب منه أو مما يتعجب به.

ثم بعد هذا يقول الشيخ: "والعارفون المتنزهون إذا وضع عنهم وزر مقارنته البدن، وانفكوا عن الشواغل، خلصوا إلى عالم القدس والسعادة، وانتقشوا بالكمال الأعلى، وحصلت لهم اللذّة العليا، وقد عرفتها، وليس هذا الالتذاذ مفقودا من كل وجه والنفس في البدن، بل المتغمّسون في تأمل الجبروت المعرضون عن الشواغل يصيبون وهم في هذه الأبدان من هذه اللذّة حظًّا وافرًا، قد يتمكن منهم فيشغلهم عن كل شيء".

مذهب الطوسي:

وفي شرح الإشارات للمحقق الطوسي: "جلَّ جناب الحق تعالى أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولذلك فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل، وعبرة للمحصل، فمن سمعه فاشمأز عنه، فليتّهم نفسه لعلّها لا تناسبه، وكل ميسّر لما خلق له، والمراد ذكر قلة الواصلين إلى الحق، والإشارة إلى أن سبب إنكار الجمهور للفن المذكور في هذا النمط هو جهلهم بها؛ فإن الناس أعداء لما جهلوا، وإلى أن النوع من الكمال ليس مما يحصل بالاكتساب المحض، بل إنما يحتاج معرفة أنك إلى جوهر مناسب له بحسب الفطرة".

ومقصد الشيخ والعلامة الطوسي من هذين العبارتين أنه لو كان منقولا عن الأنبياء والأولياء أمورا هي خارجة عن دائرة عقولنا فعلينا وينبغي لنا أن نصدّقها بناءًا على أن نفوسهم تكون نقيّة وطاهرة من ظلمات البهيمة وكدورات البشريّة، وما تحصل لنا هذه السعادة، ولكن ما خرج الجواب من تقرير الشيخ أن في هذه

الصورة جوكي الهند وراهبي النصارى والإشراقيون من الزمن الأول جميع علومهم لماذا ليست قابلة للتسليم، وليست أحرى بالإذعان؟ في حين أن مدار ترقي الروحانية على التجرّد وترك الدنيا، فتجرّد هؤلاء لماذا هي قليلة وأقلّة من تجرّد الأنبياء والأولياء؟! بل ظاهرًا هذا الناس يرون متنفّرين من مجالسة كثير الناس، ومفْنِيّين لعواطف الإنسانية، فمن هذه الحيثية تقرير الشيخ ناقص أصلا، فلهذا نترك الشيخ، وندرج في الذيل الانتخاب المختصر لأقوال العلماء الآخرين.

مذهب ابن رشد الأندلسي:

الأول: القاضي ابن رشد الأندلسي الذي كتب ردًا لكتب الإمام الغزالي - رحمهما الله تعالى - ويخيّله الأوربيون الفلسفيَّ الأكبرَ للمسلمين، يكتب في مقام: وجّهَنا الله تعالى في كتابه الصادق في المقامات المتعددة إلى طريقة القياس والاستدلال وحضّ ورغّب، وحرّض على استعلام كل شيء بالعقل.

"وإذا كانت هذه الشرائع حقا وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإنا معشر المسلمين لعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع؛ فإن الحق لا يضاد الحق".

وكتب في مقام آخر ذاكرًا ومبيّنًا لطريقة الروحانية للصوفية: "ونحن نقول: إن هذه الطريقة إن سلمنا وجودها، فإنها ليست عامة للناس بما هم ناسٌ، ولو كانت هذه الطريقة في المفقودة - هي المقصودة، هكذا في كتاب بيان تلبيس الجهمية فليتدبر - بالناس لبطلت طريقة النظر، ولكان وجودها بالناس عبثا، والقرآن كلّه إنما دعا إلى النظر والاعتبار، وتنبيه على طرق النظر".

الإمام ابن تيمية والفلسفة:

وعلى مقابلته ومنافسته كتب العلامة ابن تيمة - رحمه الله تعالى - في رسالته "الفرقان": "فمن جرّب ما يقولونه (الأنبياء) ويقوله غيرهم، وجد الصواب معهم، والخطأ مع مخالفهم، كما قال الرازي، مع أنه من أعظم الناس طعنًا في الأدلة

السمعية، حتى ابتدع قولاً ما عرف به قائل مشهور غيره، وهو إنما تفيد اليقين، ومع هذا فإنه يقول: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا وتروي غليلا، ووجدت أقربَ الطّرق طريقةَ القرآن، اقرأ في الإثبات: "إليه يصعد الكلم الطيب"، "الرحمن على العرش استوى"، واقرأ في النفي: "ليس كمثله شيء"، "ولا يحيطون به علما"، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وأيضا فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لا يعتصمون بتعليم الأنبياء وإرشادهم وأخبارهم، وجدهم كلهم حائرين ضالين شاكّين مرتابين، أو جاهلين جهلا مركبا".

رسالة ابن العربي للرازي:

وبالألفاظ التي نصح الشيخ محي الدين ابن العربي رحمه الله تعالى، الإمام فخر الدين الرازي في رسالته هي أوضح وأوسع من هذه الألفاظ، هو بعد أداء شكر إعطاء حمية الإمام الرازي يكتب: فإذن ينبغي للعاقل أن يتعرض لنفحات الجود، ولا يبقى مأسورا في قيد نظره أو كسبه، فإنه على شبهة في ذلك، لقد أخبرني ممن ألفيت به من إخوانك أنه رآك وقد بكيتَ يومًا، فسألك هو ومن حضره عن بكائك، فقلت: مسألة اعتقدتها منذ ثلاثين سنة، فتبيّن لي الساعة بدليلٍ لاح لي أن الأمر على خلاف ما كان عندي، فبكيت لعل الذي لاح لي أيضا يكون مثل الأول، فهذا قولك، ومن المحال على الواقف بمرتبة العقل والفكر أن يستريح وأن يسكن، ولا سيّما في معرفة الله تعالى، فما بالك يا أخي تبقى في هذه الورطة، ولا تدخل طريق الرياضات والمكاشفات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتناول ما نال من قال فيه الله سبحانه: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾".

مسلك المجدد لألف الثاني:

والشيخ أحمد السرهندي مجدد ألف الثاني يؤدي هذه المقالة بهذه الألفاظ: "المقصود هو أن يكون الناس مُحكَمين في اعتقاداتهم إحكاما، ويحصّلون على

يقينٍ وطمأنينة إيقانا لا يزيلها أيّ مثير للشك، وأن لا تمحوا تلك العقائد المُحكَمة، ولا تنمحق ولا تمحق بإثارة الشبهات الباطلة، وإيجاد الأغلوطات الفاسدة؛ لأن أرجل الاستدلال تكون من الخشب، والمستدل لا يستطيع أن يقف وقتا مّا، تنبّهوا واعلموا جيدا، وافهموا كاملا، ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

ويقول في موضع آخر: "وكما أن سبيل العقل منفرد ومبائن من سبيل الحواس؛ بأن الشيء الذي لا يعلم بالحواس فيعلم بالعقل، هكذا طريقة النبوة وسبيلها منفردة ومباينة من سبيل العقل، يعني القول الذي لا يمكن إدراكه بالعقل يعلم بنور النبوة، والذي لا يسلّم ولا يذعن للعلم طريقةً فوق العقل وأعلى منها فهو في الحقيقة منكر للنبوة ومخالف للبداهة والضرورة".

ويكتب بعد ذلك في موضع: "والحاصل أن طريقة الرياضات والمجاهدات في لون وصِبغ النظر والاستدلال معتبرة ومعتمدة إذا كانت مصدّقة بواسطة الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام".

ابن خلدون والعقليات:

والعلامة ابن خلدون – رحمه الله – قيله قيل المجدد – رحمه الله تماما وكاملا، هو يكتب بتشريح زائد من المجدد في مقدمة التاريخ – فيقول –:

"فافهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتّبع ما أمرك الشارع من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك، واعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد، والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره؛ فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فيطمع أن يزن به الجبال، هذا لا يدرك، على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من

ذرات الوجود الحاصل منه، وتفطن في هذا غلط من يقدم على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه، واضمحلال رأيه، فقد تبيّن لك الحق من ذلك".

ويكتب في موضع آخر: "وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي ابن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد: إن المعاد الروحاني وأحواله مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس؛ لأنه على نسبةٍ طبعيةٍ محفوظةٍ ووتيرةٍ واحدةٍ، فلنا في البرهان عليه سعة، وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان؛ لأنه ليس على نسبة واحدة، وقد بسطه لنا الشريعة الحقّة المحمّدية، فلينظر فيها، ولنرجع في أحواله إليها".

العلوم الكشفية وابن خلدون:

والعلوم التي لا يعلم بذريعة العقل بل بذريعة الكشف، يكتب حولها: "ثم هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم إلا إذا كان ناشئًا عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة، كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين، وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ من الاستقامة، ومثاله أن المرآة الصقيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة، وحوذي بها جهة المرئ فإنه يتشكل فيها معوجا على غير صورة، وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحا".

قول الشيخ شهاب الدين السهروردي:

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله تعالى: "العلم الذي يحصل بالعقل والاستدلال ليس يقينيًا بحيث لا يمكن إزالته" فكأنه في هذا القسم من العلم نوع و قسم من التردد والاضطراب، وعلوم الصوفية تكون يقينيّة وقطعية أبدًا وأصلا، يعني: هي تكون محكمَة، وإن كان أحد يريد أن ينشأ فيه الشك والشبهة فلا يمكن له أن ينشأ فيهما قطعا؛ لأنها تكون بمنزلة من رأى شيئًا بعينه، أو سمع قولا ولفظا بأذنه.

فيكتب في كتابه العوارف - عوارف المعارف -: "فما اضطراب الطبائع إلا ضربٌ من الجهل، فقلوب الصوفية واعية؛ لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا

أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد، انفتحت مسامّ بواطنهم، وسمعت آذان قلوبهم".

مذهب علاء الدين الطوسي:

ومن جماعة المتكلّمين العلامة علاء الدين علي الطوسي (ت: ٨٨٧هـ) قال وأوضح في مقدمة كتابه الذي كتبه في رد الحكماء بأمر السلطان محمد فاتح: بأن عقولنا قاصرة عن إدراك حقائق كثير من الأشياء، بل يعجز كبار من الحكماء عن علم وإدراك ماهية المحسوسات، فلا ينبغي أن يكون لنا عذر في تسليم الأشياء التي وإن لم نعلم دقائقها بأنفسنا، ولكن أخبرنا به رسل الله الصادقين الذين يدل ودلت على صداقتهم وصدقهم مئات الآيات والبيّنات.

أرأى أعيننا كل شيء يمكن رأيه - أن يره -؟! أوَ سمع أذننا كل صوت يمكن أن يسمعه؟! أوَ لمس أيدينا كل شيء يمكن مسّه - أن يمسّه -؟! أو أدّى ألسنتنا كل لفظ يمكن أداؤه؟! ثم إذا ما أحاط حواسنا وقوّاتنا هذه على جميع مقدوراتها كاملاً وكاملا، فأي وجه أن يحصل لقواتنا العقلية التصرف الكامل والإحاطة والسيطرة على سائر معلوماتها، حتى أن مسائل ذات الله تعالى وصفاته أيضا يأتي في قدرته، وتحت طاقته وعلمه، ولا يبقى حقيقة من حقائق الأشياء خارجة عن سيطرتها، وتصرف يدها، وغير داخلة في قدرتها ومعلوماتها.

ثبوت نقصانات العقل:

ونحن نشاهد ونعرف بأن الماء والنار والتراب والطين والأجسام التي نشاهدها ونراها كل وقت وحين، الفلاسفة الكبار متحيّرون في إدراك حقيقتها، يقول أفلاطون: بأن هذه أجسام بسيطة، وتقول طائفة جماعة أرسطو: لا، بل هذه الأجسام مركبة من الهيولى والصورة، ويقول ديمقراطيس: إن هذه الأجسام مركبة من الأجزاء والذرّات التي لا تقبل التقسيم من صلابتها وشدتها، ثم في بحث تناهي أجزاء الجسم ولا تناهيها يقول النظام قولا والمتكلمين قولاً آخر، وهكذا في أمر العقل والنفس الناطقة كل واحد له مذهب منفرد عن الآخر، والدليل الذي يقيمه

أحدهما في إثبات مرامه يردّه الآخر، ألا أن النفس التي تسكن معنا كل حين، وتكون مقيمة عندنا كل وقت، والأجسام التي تأتي وتكون في استعمالنا - استعمالاتنا - ليلا ونهارا، إذا كانت هذه الحالة لهؤلاء الأذكياء في إدراك حقيقة هذه الأشياء، مِنْ تشتّت آرائهم، وتباين أفكارهم فما الرجاء بوصولهم ، ولماذا نؤمل وصولهم، إلى أسرار الغيب ودقائق الملكوت؟! غير أن يفهم الكيفية الصحيحة لصفات الله تعالى وأفعاله الشخص الرجل والمرء المؤيَّد والموفَّق، الذي أُيِّد ووفِّق من جانب الله تعالى، ويخبر عنه الذي قد دلّ وظهر آلاف العلامات والأمارات على كونه مبعوثا من الله تعالى، وإلا فإن اعتمد أحمق الذي لم يستفد من نور النبوة، والذي لم ينهل من مَعين النبوة على عقله في الوصول إلى كنه الإلهيات، فمن القطع أن يتزاحم أوهام عقله تزاحمًا شديدًا، ويحدث له مصاعب في تميز الأشياء العقلية والوهمية الذي لا يكون عنده تدبير لانسدادها، وهذا القول لأرسطو مبني على نهاية العدل: بأنه لا يحصل مرتبة اليقين من الدلائل في مسائل الإلهيات.

وأما الحكماء الذين تركوا تقليد الأنبياء الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وانهمكوا في هذه المسائل فوجهه وسببه بأن الله تعالى خلقهم فطناء فطرة، وخلق في عقولهم قسما من الحِدّة، فحذقوا بسببه وأجله في الهندسة والحساب وغيره من العلوم حذقًا تامًّا وكاملاً، لو عظّموا من هذا الاعتبار وقدّروا من هذه الناحية أيّ تعظيم وأيّ تقدير لكان قليلا، ولكن بالأسف أنهم لم يشكروا نعمة الله تعالى هذه، وصاروا مصداقا لـ..... واجترؤا على وضع القدم في ميدان واسع وصحراء عريضة، الذي هو كان خارجا عن حدّ أفهامهم وحدود فراستهم، حتى ضلّوا وأضلّوا.

فالآن ينبغي لكل إنسان أن يعتبر من حالهم هذه، ويخلّص ويصفّي قلبه من هذه الاضطرابات والشكوك والأوهام معتمدا على أقوال رسولٍ ثبت صدقه بالدلائل بلا قيل وقال، وغير كاره له ولا قال، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الإمام الشاه ولي الله والعقليات:

فالآن إذا وصلنا إلى هاهنا فينبغي لنا أن نصرف عنان القلم إلى تقرير الإمام الغزالي رحمه الله تعالى الذي ما زِلْنا نشير إليه من بعيد، لأنا قد فرغنا الآن من انتخاب كلام الحكماء والمتكلمين والصوفية والمؤرخين جميعا، وقد نشأ تقريبا وغالبا، إن لم يكن أغلبا التحريك والتحريض والثورة الذي نريد إنشاؤه في قراء رسالتنا حول هذه المسألة، ولكن يكون من التقصير الكبير إن تركنا في هذا الموقع الإمام شاه ولي الله رحمه الله فذّ العصر ووحيد الدهر، وقد شهر واشتهر بنسبته بأنه لم يُخلق في المتأخرين أفهم منه في هذه المسألة (العقل والنقل)، وما بيّن أحد في هذا العصر الأخير والزمن المتأخر، أسرار الشريعة أزيد تفصيلا منه بهذا القدر، ويحرّر في كتابه "حجة الله البالغة": "قد يظن أن الأحكام الشرعية غير متضمّنة لشيء من المصالح، وأنه ليس بين الأعمال وبين ما جعله الله جزاءًا لها مناسبة، وأن مثل هذا التكليف بالشرائع كمثل سيّدٍ أراد أن يختبر طاعة عبده، فأمره برفع حجر أو لمس شجر مما لا فائدة فيه غير الاختبار، فلما أطاع أو عصى جوزي بعمله، وهذا ظن فاسد تكذّبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير".

ثم يكتب هذا بعد ورقة: نعم كما أوجبت السنة هذه، وانعقد عليه الإجماع، فقد أوجبت أيضا أن نزول القضاء بالايجاب والتحريم سبب عظيم في نفسه مع قطع النظر عن تلك المصالح لإثابة المطيع وعقاب العاصي، وأنه ليس الأمر على ما ظن من أن حسن الأعمال وقبحها بمعنى استحقاق العامل الثواب والعذاب عقليان من كل وجه، وأن الشرع وظيفته الإخبار من خواص الأعمال على ما هي عليه، دون إنشاء الإيجاب والتحريم بمنزلة طبيب يصف خواص الأدوية، وأنواع المرض؛ فإنه ظن فاسد تمجه السنة الخ.

وهذه الأقوال كلها التي نقلت إلى هاهنا، فهي أقوال للعلماء المعتمدين الذين هم عُدّوا ولا يزال يعدّون بلحاظ فضلهم وأجل كمالهم شموس وأقمار الأمة المحمدية، وقد سلّم فضيلتهم بأي حيثية كانت في أربعة أطراف العالَم.

ولكن بهذه الأقوال المتفرقة والمقالات المتشتّتة يقع قاصر العلم بدل أن يحصل منها فائدة، في اضطراب شديد ومشكلة عسيرة، وهو لا يستطيع أن يتعيّن أن يأخذ منها أيّ قول، وأن يترك أيّ قول.

ففي حين هذا التذبذب يأتي الإمام الغزالي رحمه الله ويساعده وينصره بإحياء علوم الدين وغيره ويقول: لا تخف، هذه الأقوال كلها صحيحة، وهذا أيضا صدق بأن أحكام مذهب حق مّا موافقة للعقل، وهذا القول أيضًا صحيح من وجه بأن مرتبة النبوّة والولاية فائقة وأعلى من العقل، وهذا القول أيضا ليس بغلط بأن كل علم يحصل بالعقل، ولا مضايقة في القول أيضا بأن بعض العلوم يحصل بطريقة سوى طريقة العقل، ونسلّم أيضا بأن جميع أحكام الشرع مبنية على المصالح والعقل، وهذا القول أيضا ليس في غير محله بأن محض مصالح العقل لا يكفي لفرضية شيء أو تحريمه وحرمته.

ويمكن أن تخاف طبيعتك المضمحلة، وتقوم طبيعتك الضعيفة فزعًا، برؤية هذه البيانات المتضادة، وتفهم هذه المقدمات الصعبة طلسم منطقي مّا، ولكن التقرير الجامع والمانع الذي سنذكره عن قريب وسنحرره، ستقتنع بقراءته وستسلى برؤيته، وستستيقن بأن الفهم في هذه الأقوال بالاختلاف الحقيقي ما عدا النزاع اللفظي، قصور فهمنا، وتقصير أذهاننا.

الأشياء المشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوانات:

أمعن النظر أولاً بأن الإنسان أيّ حالة امتيازية أعطاه الله تعالى من بين سائر الحيوانات، أهي القدرة والإرادة والخوف والرجاء والشهوة والغضب التي وضعت في الإنسان وليست في الحيوانات، أم هي العين والأنف والأذن واللسان واليد والرجل والأعضاء التي أعطاها الله تعالى للإنسان ولم يعطها غيره، أم الحس المشترك والخيال والوهم والحافظة وغيرها من الحواس الباطنة التي أودعها الله تعالى في الإنسان، ولم تأت في نصيب الآخرين، فتقول قطعا بأنه ليس للإنسان فضيلة بهذه الأشياء جميعها على الحيوانات الأخرى، بل في بعض الأحيان ترى

بعض الحيوانات فائقة عن الإنسان في بعض هذه القوى، فإذًا ما هي الخصوصية التي لأجلها سلّمت شرافة الإنسان على الحيوانات؟ وما هي العلامات التي هي الممّيزة حدا وحدودا، وظاهرا وقالبا، وخطا وخالا، للوجه المشرق للإنسان.

الأمران المميّزان للإنسان من غيره:

فلا نستطيع أن نتلفظ في جوابه سوى اسم شيئين الذي يختصره لفظا: العلم والإرادة المختصرتين والصغيرتين، والذي نأخذ وقتا معتدا به من ناظرينا وقارئ رسالتنا لتشريحه وتوضيحه؛ ومرادنا من العلم العلم الذي ينكشف به أحوال الدنيا والآخرة، ويعرض أمامنا وعلينا الصورة الأصلية لحقائق الكون، وقصدنا بلفظ الإرادة الإرادة التي تمشي وتجري وتعمل بإشارة العلم، لا بإشارة هوى النفس، لأن الإرادة التي ينشأ من حركة القوّة الشّهوانية هي موجودة في جميع الحيوانات، كل ذي نفس وقت الجوع والعطش يسعى في طلب الحبّة والماء (الرزق) ووقت غلبة الشهوة يريد إطفائها وإخمادها، ويظهرالطاقة كلها، ويبذل القوة ويصرف الطاقة في مقابلة العدو، أفما وجدت الإرادة في هذه الحالات كلها؟ لكن نعم ما وجدت الإرادة التي هي من خصوصيات أفراد الإنسان، وخصوصية الإنسان أنه يستطيع أن يتحرك خلاف ميلان الشهوانية بهداية العقل، ولا يتقيّد في فعل نفسه وتركه لمرضاة النفس وعدم مرضاتها، هذه الإرادة وذلك العلم الذين قد ذُكرا سابقًا مختصّان بأمجد المخلوقات وأشرفها يعني الإنسان، وبهذه العلامتين يعرف الإنسان باعتبار كماله من الحيوانات، والكبير من الطفل والصغير، والولد عندما يخرج من بطن أمّه طيًا مدارج خلقته فلا هو يتميّز بين الصالح والسيء، ولا بين الحسنة والسيئة، ولا بين النافع والمضرّ، ولا أن إرادته ما يتبع لقانون عقلي، وبقدر ما يكون النماء في قُواه، والتطور في علمه، والاتساع في معلوماته، فبقدره تنضبط أفعاله وأعماله في وعلى قواعد الفهم والعقل، فالآن إن كان علمه صادقا والفتاوى التي نفذت عقله صحيحة، فيمكن أن يكون جميع أعماله صحيحة، وإن تعثّر وزلّ عقله، ففهم النافع ضارا ومضرا، والضار المضر نافعًا، والصالح سيئا، والسيء صالحا، والشر خيرا،

والخير شرا، فلن يتوقّع منه أبدًا بأنه يأمن من الزيغ والخطأ في حركاته وسكناته، فيجب على كل إنسان في هذه الصورة وفي مثل هذه الحالة أن يتفكر في حصول الأسباب والوسائل للعلم الصحيح، ويجتهد في إنشائها في نفسه قدر طاقته وحسب وسعه، ولكن بقدر ما تُفكّرَ وتُدبّرَ لم يعلم حقيقة العلم أزيد من أنه رسم صورة الشيء في عقلنا كصورة الشيء التي ترى في المرآة، فانظر مثلا إذا مرّ شخص أمام أعيننا، أو أبصرنا قصرًا بهيجًا عظيمًا في مكان، وغاب عن أعيننا بعد مدة قليلة، ثم أبصرنا ذلك الشخص أو القصر في وقت مّا، ففورًا نعلم بأن هذا هو ذلك الشخص أو ذلك المكان، فإن لم تكن عندنا صورة التي تنطبق مع هذا الشخص أو المكان، فأي معيار كان معنا الذي علمنا به هذا بعد هذه المدة المديدة.

عقل الإنسان كالمرآة:

فثبت منه عيانا أن ذهن (عقل) الآدمي مثل المرآة، والمعلومات التي يحصل فيها مثل العكس (الصورة) التي ترى في المرآة وقت محاذاة ذلك الأشياء للمرآة، نعم فيهما فرق مّا، وهو أنه يعكس في المرآة الأشياء التي تصلح أن ترى بالعيون، وينتقش في الذهن كل قسم من الأشياء، فمثلا أنك إذا سمعت خطبة طويلة لخطيب، ولاحظت في ذهنك خلاصة مضامينه ولبّ خطبته، فإذا يخطب شخص مّا ذلك الخطبة أمامك فتفهم فورًا بأن هذا مضامين عينُها التي بيّنها الخطيب الفلاني، فإن لم تكن عندك صورة لهذه المضامين، فكيف فهمت بأن هذه الخطبة وذلك الخطبة واحدة، فعلم منه بداهة بأن رسما مّا وتخطيطا مّا لهذه المضامين كانت موجودة في أذهاننا، والحال أنا إن أردنا انعكاس هذه المضامين في المرآة فليس من الممكن أبدًا، فالحاصل بأنه يتفاوت الذهن والمرآة بأنه ينعكس في الأول الأشياء المخصوصة، وفي الثاني كلّ شيء، ولكن يشتركان في هذا القدر بأن في كليهما يحصل صورة الأشياء؛ بأنه يحصل في هذا صورة شيء وفي ذلك أيضا، فالآن إذا كان شيء قابل للانعكاس في المرآة، ولكن لا ينعكس فيها، فالذي علم من التتبع والاستقراء بأنه يمكن أن يكون له خمسة أسباب وأوجه؛ أما أن ذلك الجوهر

(الحديد) الذي يصنع منه المرآة ما صقل حتى اختار ويختار صورة المرآة إلى الآن، أو قد جعل وصُنع المرآة ولكنه قد صدأ، أو المرآة صافية وشفافة ولكن الشيء الذي تريد انعكاسه فيها، فهو ليس بمقابل لها، وليس في محاذاتها وأمامها، أو مقابلا لها، وفي محاذاتها أيضا، ولكن يكون شيء آخر حائلا بين ذلك الشيء والمرآة، أو لا يعلم العاكس أن عكس هذه الصورة في أي جهة تكون فيمكن عكسها، ففي هذه الحالات كلها لا تنعكس الصورة المطلوبة في المرآة، وإن لم يوجد مانع مّا من هذه الموانع، فمحال أن لا يظهر صورة المحسوسات فيها.

وهكذا بعينه حالة قلب (عقل) الإنسان، فأحيانًا يكون بأن القلب بنفسه يكون ناقصًا، لم يحدث للانعكاس فيه القابليّة الكاملة، كقلب الرضيع يكون خاليًا عن علم المعقولات أصلاً، وتارة تحيط بالقلب قسم من الظلمة والكدورة بسبب المعاصي والأفعال النجسة والقبيحة التي لا تبقى نورها وطهارتها كاملا من أجلها، فلهذا لا يكون فيه انعكاس الأشياء اللطيفة والرقيقة، ويكون هذا القلب عاريا عن ذات الله تعالى وصفاته وعن أسرار الغيب رأسًا، ولا تدبير ولا سبيل لإزالة صدأ القلب إلا أن يتوجه كليةً إلى طاعة الله تعالى، ويعرض تمامًا عن مقتضى الشهوات، ويختار طريقة المجاهدات التي لقّنها أهل خبرة هذا الفن وأصحاب تجربة هذه الحلبة، لاستئصال التمنّيات غير الجائزة، وقمع الهوى النفسانية المهلكة، وفي ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، و"من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" (الحديث) إشارة إلى هذا السرّ.

وأحيانا يكون قلب الإنسان طاهرًا ونقيًا من أوساخ المعاصي ودرن الذنوب، ومع ذلك لا يرتسم فيه علوم الذات والصفات وحقائق الأشياء، فوجهه أن توجّهه لا يكون كاملا لهذه الأشياء، بل يكون مشغولاً في فهم آفات النفس، أو في توفير طرق المعاش مثلاً، فالأشياء التي لم يتّجه ولم يتوجّه قلبه إليها، لا ينعكس فيه، مثل الصور التي ليست بمحاذاة المرآة لا ينعكس فيها، نعم قد يكون القلب صافيا والتوجه أيضا كاملا، ولكن تلك العقائد الفاسدة التي هي راسخة في القلب من الأول بناء على وبسبب التقليد وحسن الظن، تكون حاجبة لانعكاس الحقائق، وكما

لو حال بين الشيء المطلوب والمرآة شيء آخر، فلا يقع عكسه فيه، فكذا في وقت الحجاب عقلنا بل عقولنا تكون قاصرة عن تحصيل العلوم الحقيقيّة، وأحيانا تكون أسباب العلم هذه كلّها وجميعها موجودة، ولكن هذا العلم الذي يتفرع على علومٍ حاصلةٍ لا نعلم أن نقيم فيها ترتيبًا مناسبًا، فلذا نحرم من العلم، و تكونون محرومين منه، ومثاله لو يريد شخص أن يرى حال ما وراء وسادته، فإن كان هو يضع المرآة أمام عينيه فلا يتضح ولا يظهر له حينئذ حال وراءه، وإن كان يجعلها وراءه فإذًا ينعكس ولكن لا تستطيع العين أن تراها، ففي هذه الحالة هذا الرجل مع وجود وتهيأ جميع الأسباب محروم من رأي العكس؛ لأنه لا يعرف أخذ طريقة العكس، فلو أخبره أحد بأن اجعل مرآةً وراءك، ومرآة أخرى في محاذاة هذه المرآة، بحيث أن تجيء وتنعكس في هذه المرآة عكس ما في المرآة الأولى، فبمعرفة هذه الطريقة، وبمعرفتك هذا السبيل، ينحلّ جميع المشكلات ومشكلاتك، وتذهب وتزول جميع المشقّات التي كان يتحملها أو كنت تتحملها في أخذ هذا العكس، دفعةً واحدةً.

افهم هذه الحالة بعينها لقلب الإنسان، وتيقّن أن هذه هي الأمور التي تحرمنا من معرفة أكثر الحقائق، وإن لم تكن هذه الموانع فلا شك أن كلّ قلب يحمل القابلية ويصلح تماما لحصول فيضان العلم الذي يجري كل وقت وكل آنٍ من الفيّاض الأزلي بلا بخل، فالذين يقولون أن أحكام المذهب الصادق تكون مطابقة للعقل فقولهم بهذا الاعتبار صحيح تماما وأصلا أن العقل الكامل والصافي والشفاف الذي يوجد فيه جميع شرائط انعكاس الحقائق، لا يستطيع أن ينفذ حكما خلاف حكم الله تعالى قطعا، والذين قالوا: لا تزنْ أحكام الله تعالى في ميزان عقلك، فمرادهم أنه لا يستطيع أن تنعكس في عقلنا المصدئ الأسرار الإلهية.

المذهب الحق والعقل:

وهكذا الفريق الذي يظنّون تفوق حقائق النبوة وعلوّ حقائق الصفات الإلهية من فهمنا وإدراكنا، هم بالنسبة إلى الفهم والإدراك العام يقولون صدقا وحقا، والذي

يقول: لا، بل يمكن أن يُعلم هذه الأشياء أيضا بذريعة العقل الإنساني، فمدعاه أيضا ليس بغلط، وهو يقرر صوابا العقل الإنساني الذي ليس فيه كدورات النفس وأدرانها.

وبالجملة قول النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس يدخلون الجنة وفق درجات العقل، محمول على أن بقدر ما يكون الترقي للعقل الحقيقي، يكون القرب إلى درجات الجنة، وهذه المقولة بأن أكثر أهل الجنة يكونون أبله، فالمراد فيه الذين يُعدّون أبلهًا بسبب عدم توجههم في أمور الدنيا، والخطاب بـ "عليكم بدين العجائز" إليهم أيضا، الذين عقولهم ودماغهم لا تستطيع أن تكون متحمّلة للأسرار الدقيقة، فالآن تذكّرْ تلك الأقوال المتعارضة مرّة أخرى التي كنتَ مضطربا جدا في انحلالها، والتي لم أمكنتُ لك توجيهها الصحيح.

العقل والنقل كل منهما محتاج للآخر:

وفي الأخير احفظ جيدًا الوصية الثمينة للإمام - رحمه الله تعالى - : "فلا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهلٌ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرورٌ، فإياك أن تكون من الفريقين، وكن جامعًا بين الأصلين؛ فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية، استضرّ بها كما يستضرّ المريض بالغذاء، وظنّ من يظنّ أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينها غير ممكن، ظنّ صادر عن عمىٍ في عين البصيرة، نعوذ بالله منها".

قد نقلنا إلى هاهنا خلاصة تقرير وخطبة الإمام الغزالي رحمه الله، وتقرير وخطبة الإمام وإن كانت في غاية النقاء، ونهاية الوضوح، والفهم العام، ومليئة

بالأسرار جدًا، ولكن فيها بعض مقدّمات إقناعية التي إنكارها ليس بمستبعد من أحد فريقنا الجرئ والماجن، ونحن نستطيع أن نعظّم هذا البيان القابل للتعظيم كثيرا، ولكن أحد مقابلنا المولع بالظاهر والحر كتابة وفكرًا لا يستطيع أن لا ينتقد ولا يعترض عليها قطعا، وأن لا ينكت فيها بحثا، بأن لو سلّمنا انعكاس الصور في الذّهن، فالشرائط التي قرّرت للانعكاس في المرآة، لماذا وجود جميعها ضرورية في الذهن؟ - أي: لانعكاس شيء في الذهن - نحن سلمنا بأن في الذهن والمرآة مشابهة إلى حد مّا، ولكن التفاوت بينهما أيضا لا نهاية له وكثير جدًا، فبناءًا على هذا التفاوت بعض تلك الشرائط التي هي ضرورية في المرآة، إذا هي لا تكون ضروريةً في حصول العلم، أو على العكس فما الحرج؟ وما المضائقة؟

وما سواه لم نفهم هذا أيضا ولم يأت في فهمنا هذا أيضا، بأن بمباشرة الأعمال السيّئة، أو بارتكاب المعاصي يأتي قسمًا من الظلمة على القلب، أوّلاً لا نسلّم تقسيم الأعمال إلى الصالح والسيّء، وثانيا أن التلوّث في المعاصي لا شك أنها نتيجة لفتور وكسل القوة العملية أو فسادها، ولكن تأثّر القوة العملية من هذا الأثر السيّء لا معنى لها ظاهرًا، وليس فيها مقصد في الظاهر، وأيضًا على قول الإمام ابن رشد الأندلسي بأن القرآن نبه على طرق النظر والقياس في مواضع متعدّدة، وسلك سبيل الاستدلال في مواقع مختلفة، فإن كانت أحكام الشريعة فائقة وعالية عن العقول العامّة، فلماذا نبّهنا القرآن كلّنا لاستعمال العقل ولماذا أرشدنا ودعانا لنحو التدبر والفكر، وعلى قول الأستاذ سيد أحمد خان: لماذا صح تكليف الإنسان بالأحكام التي هي خارجة عن فهمه وعقله، والحال مع أن الإنسان استحق التكليف الشرعي لكونه ذي عقل وفهم.

هذا ومثل هذه شبهات أخرى إذا سمعناها نقول فقط: إذا سمعت كلام أهل الباطن وأصحاب القلوب فلا تقل: إن هذا خطأ، ولكن الخطأ نشأ بأن قارئه وناظره ليس من أهل الحب والود.

كلام العلامة القاسم النانوتوي وثناء المؤلف عليه:

وبرعاية خاطر وقلب المعترض، ناحيًا عن طريقة استدلال الإمام، أو متقدما، نرجع إلى تقرير فاضل جيد جدًا الذي مهما تتفكّر في تصنيفاته، فتعترف بقدره بتدبّره وفهمه الوهبي، وصادق بيانه الحقيقي، هذا هو الفاضل الذي إن سمّيناه بأنه الشيخ الأكبر، أو الإمام الغزالي، أو شاه ولي الله - رحمهم الله تعالى - في عصره، وبأنه شيخ أكبر عهده، وإمام غزالي وقته، وشاه ولي الله عصره، فليس قولاً في غير محله وكلاماً في غير موضعه، بعيدا عن الصواب، وهذا هو الفاضل الذي أسّس طريقًا بديعًا لعلم الكلام الذي هو نقشٌ على حجرٍ إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى، والذي لا يستطيع أن ينتهي فخرنا ودلُّنا به.

هذا الفاضل الذي يذكر عمومًا بلقب مولانا محمد قاسم النانوتوي، - رحمه الله تعالى - فإنه ذكر الأمور المفيدة في كتبه المختلفة التي تُعيننا كثيرًا وتحلّ عقدة إشكالنا ومشكلتنا إلى حدٍّ كبير في هذه المسألة؛ مسألة العقل والنقل، والآن نحن الذي نكتبه في الذيل هو يكون مأخوذًا تمامًا من تصانيفه.

قد علم عيانا من المطالعة الوسيعة لصحيفة العالَم هذا الأمر بأن بقول الطبعيين الفطرة، وبفكر أهل المذاهب، الرب والإله المختار ما خلق شيئا في هذا الكون عبثًا وبلا فائدة، وكما تتّسع دائرة التحقيقات حينًا فحينًا كذا يظهر علينا منافع كلّ شيء صغير وكبير بوقتها فوقتها، فبهذا الاعتبار كلّ جزء الكون مجموعة للحِكم الثمينة، ولكن مع هذا يتعلق كل شيء بغرض أو بأغراض متعددة التي ينحصر كمال ذلك الشيء أو نقصانه على زيادة ذلك الغرض أو نقصانه، ويمكن أن نقول لها : الأغراض الأصلية والأهداف الأساسية لذلك الشيء، ففي الحيوانات مثلا: مدح الفرس وذمه، وحسنه وقبحه موقوف على جريه وسيره، وإن كان يستطيع أن يحمل الأحمال مثل الحمار، ويذبح مثل البقرة والغنم ويؤكل، ويشرب لبنه أيضاً، ولكن إفراط لبنه هذا، أو جسامة جسمه وبدنه، أو قوة حمل الأثقال، ليست بدخيلة في قدرها وقيمتها، كفي البقرة والجاموسة كما كان المقصود الأعظم الأصلي والكبير

منهما اللبن والسمن وغيرهما، فلهذا سرعة جريها وسيرها لا تؤثر في حسنها ونباهتها وقبحها، أو حسن زهرة الورد وبهائه وكماله، من لونه ونكهته، ولا يكون غرض من الذائقة شيئا مّا، أو المقصد من المانجو مثلا الذائقة، ولا يتعرض كثيرًا للونه ونكهته، وهكذا الكتاب وإن كنا نستطيع أن نأخذ منه عمل الاتكاء وقتًا مّا، ولكن الغرض والمقصد الأصلي منه قرائته، أو في وقت الضرورة بتحريق الثياب يمكن أن نطبخ شيئا ونأكله، ولكن المقصد الأهم منه هو أن يستر بدن الإنسان ويصير سببا لزينته، وبالجملة إذا ألقي النظر وجال الفكر على جميع أجزاء العالم، ففي كل موقع نرى هذا الشان؛ بأنه يتعلق بكل شيء غرض أصلي وأساسي، به قيمته وبه مداره، ثم لا يمكن أن الإنسان الذي يدعي دائما لنفسه بأنه أشرف المخلوقات، يكون خاليًا من الغرض الأصلي، والمطلب الأعظم، الذي يتوقّف على وجوده وعدمه حسنه وقبحه، وبذريعته وبسببه يستحق المدح والتعريف، أو الهجو والمذمّة، ولا شك أنه يحدث لنا صعوبة كبيرة وشديدة في تعيين هذا المقصود الأعظم.

ولكن بهيئة صنع أعضاء الإنسان وتركيب قواه، نحلّ هذه العقدة، ونحن نتيقّن أن الإنسان بنفسه يرشدنا بلسان الحال في طلب هذا المقصد، ونحن إذا تفكرنا في أحوال الداخلية والخارجية لهذا المعجون المركب (الإنسان) فيظهر صنع تركيبه من هذه الأشياء الخمسة؛ العقل يعني: القوة العلمية، والشوق أو الخوف، والإرادة والاختيار، والقدرة والطاقة، واليد والرجل والعين والأنف وغيرها من الأعضاء الجسمانية، فلهذا بقدر ما يعمل الإنسان أيّ عمل، فيعمل هذه الآلات الخمسة فيه عملها، نفرض بأن شخصًا يذهب في الغابة ليلاً، فهو يرى من البعيد حيوانا على الطريق - طريقه الذي يمشي عليه - الذي يتخيّل بنسبته أنه أسدٌ مرةً، ويفهم مرة بأنه ثورٌ قائم، فأوّل عمل الإنسان فطرة بأنه يتفكر في أطراف ومجالات وجوانب نفع نفسه وضرره، فإن تعيّن عليه جانب الضرر، يعني أن هذا أسد مفترس، فطبعًا يطريء عليه كيفية الخوف أو الاجتناب، وتأتي قوته وقدرته في الحركة، وإن كانت الأعضاء الجسمانية في قدرته وقوته فيهرب من هناك نكصًا على عقبيه، وإن كان هذا

الشخص لم يعرف ولم يتصور ذلك الحيوان أسدًا، أو فهمه أسدًا ولكن ما تصوّره شيئًا يوصل الأذى إليه، لكان ذاهبًا في شوقه أماما (لا هاربا وناكصا إلى الخلف عدْوًا) فثبت منه هذا الأمر بداهةً أن الشوق والخوف والإرادة والاختيار والطاقة والقدرة واليد والرجل وغيرها (الذي نعبر عن مجموعها بالقوّة العمليّة) كلّها محكومة للعقل يعني: القوة العملية، وتحت قوله وأمره، ولما تقرر أن عمل العقل المفرد (القوة العلمية) تعيين النافع والمضر، وتمييز الصالح والسيء والحسن والقبيح، وأن عمل القوة العملية إيجاد عمل مّا وفق إيماء العقل، فاعتبار ولحاظ حكومة الأول ومحكومية الثاني، جميع مجموعة هذين، يعني الإنسان بأن يقع في المشاغل المفيدة تفكرًا، ويجتنب من الأمور المضرّة تدبرًا، وهذا يمكن في حينٍ إذا يمكن تقسيم الأعمال في الدنيا إلى الصالح والسيء والنافع والمضر؛ لأنه إذا ارتفع الفرق بين الصالح والطالح في الدنيا والحياة العملية رأسًا، فلا يبقى ولا نتحصل على ميدان لمآثر القوة العلمية وإبداعاتها، وكما قلنا الآن بأن عمل القوة العلمية هي أنها تستطيع أن تعمل فقط بأن تنتخب وتميّز العمل المفيد والأفضل من الناقص والمضرّ، ولعمل القوة العلمية لا بد من عروض قسمي الأعمال أمامها، فالآن إذا ثبت أن بغير وبدون تقسيم الأعمال إلى نوعين، تكون خلة الإنسان لغوة وبلا فائدة، فيعلم منها سرّ ودقيقة أن جميع العالم لماذا هم متّفقون بأن الأعمال تكون على قسمين دائماً؛ الصالحة والسيئة، أو بألفاظ أخر: النافعة والمضرة، حتى أن الملحد الذي لا يقول بمذهب و لا يتدين بشريعة، هو أيضا يسلّم هذا التفريق البديهي للأعمال والأفعال، فالآن الذي بقي الكلام عليه فقط هو في أنه كيف يتعيّن الصالح والسيء والنافع والمضر في الأعمال، يعني: كيف يعلم بأن هذا الفعل صالح أو سيّء، ويحصل من هذا العمل الراحة، ومن ذاك التكليف، ولكن من سعادة الحظ أن التقرير والكلام التي رقمت خرج منه جواب هذا السؤال إلى حد كبير؛ لأن العقل أو القوة العلمية خلقت لتميّز بين الأعمال الصالحة والسيئة أو المفيدة والمضرة، فمن القطع بأن القدرة الإلهية أودع فيها الملكة الصحيحة لهذا الامتياز، فلذا يعلم هذا الرأي قويًا ومستندًا

بأن العقل السليم إذا يأمر فعلاً فأن يكون نافعًا، وإذا ينهى عن فعل أو يجتنبه فأن يكون فيه مضرة، ومن هاهنا يكون الرجاء والأمل قويا بأن الأحكام النازلة لو نزلت من جانب الله تعالى لهداية العباد (التي تقال لمجموعها: المذهب) فأن تكون هي موافقة للعقل كلا بكلٍ وجميعا، وإلا يلزم على حكمة الباري وإتقانه بأنه تعالى أعطى الحكومة للعقل على قوانا لتعمل ذلك كلها على إيمائه وإشاراته، وأرسل رسولا حاكما ليطاع بإذن الله وجعلهما متضادين معًا، بل أعطى لكل واحد منهما الأحكام المتضادة التي لو تقبل أحدهما فيلزم الإعراض عن الثاني والآخر لا محالة.

فالحاصل أنه تعيّن بالطريقة الوثقى أن المذهب الصادق إنما هو الذي يكون موافقًا للعقل السليم، وعلى قول القاضي ابن رشد الأندلسي: ينبغي لكل ذي عقل سليم أن يُعمِل عقله، وأن يتدبّر في الطرق الصحيحة للنظر والفكر، ولا شك أن منشأ جميع القرآن والأحاديث أن يعلّم الدين وفق دستور عمل العقل، وعقل كل إنسان ما لم يتأثر من الأفكار التي تحوم حولها، وما لم يلحق به مرض يزيل الصحة العقلية وتنعدم صحة العقل، تبلّغ وتهدي إلى هذه الأعمال الصادقة التي بعث لأجله رسول من الله صادق القول لترويجه وتبليغه.

العقل السليم والسقيم:

ولكن بعد جميع هذه المراحل أيضًا المرحلة التي هي باقية طيّها إلى الآن هي أن بإضافة قيد السليم مع العقل، يحدث شبهة بأن هناك بعض العقول تكون غير سليمة أيضا، ولمّا قررت معنى السليم الصحيح فيقال العقل الغير السليم للمريض، فنحن إلى الآن لم نفهم بأن أي عقل سليم، وأي عقل مريض؟ وهل يمكن أن يلحق العقل مرض مّا، وإن فرضنا إمكان لحوق المرض به، فما علاجه؟ وأي طبيب له؟ وماذا علامات مرضه؟ فبقي هذه الاستفسارات فقط، وعلى حلّها يمكن خاتمة وانتهاء هذا البحث أيضا، ولكن قبل سماع الأجوبة لهذه الأسئلة لا بدّ من ترسيخ بعض الأمور المختصرة في الذهن:

الأول: أن الفعل الذي يكون بالآلات التي لا تكون فيها الإحساس والإدراك، فنفع ذلك العمل ونقصانه لا ينسب إلى تلك الآلات، بل يتعلق النفع والضرر بالشخص الذي يستعمل تلك الآلات، مثلا: لو فتر حداد القدوم أو كسر في عمل النجار، أو يكسر سنّ القلم في عمل الكتابة، فيفهم ويتصور هذ النقصان للنجار والكاتب جميعا، ولا يتصور في حق القدوم والقلم النفع والضرر؛ لأن وجود النفع والنقصان يتعلق حقيقة بالراحة والتكليف، ويحسّ بالراحة والتكليف الأشياء التي تكون فيها الإدراك والحس، وعلى كل حال فنفع الآلات وضررها إذا تقررا نفعا وضررا لأصل الفاعل، فالنفع والضرر الذي يكونان في أفعال القوة العملية، تكون في الواقع للروح والعقل؛ لأن الإدراك والشعور هي خاصة العقل والروح، وجميع القوى أمامها بمنزلة الآلات، كما حققناه الآن.

والأمر الثاني اللائق بالحفظ: أنه قد خلق الله تعالى رابطة مستحكمة في ما بين القوة العقلية والعملية بأنه يتعدى آثار كل واحد منهما إلى الآخر، فآثار القوة العقلية التي تظهر في القوة العملية، بعضها هي التي يتعلق بصفة الحكومة، يعني: تحرك جميع القوى العملية بمقتضى محكوميته للعقل بإيماء واحد للعقل، وبعض الآثار هي التي لا دخل لها لحكومة العقل هذه، كتغير الوجه وقت الغضب، أو حمرة العينين، أو اهتزاز الجسم وقت الخوف وذهاب اللون، ففي هذه الحالات لمّا يدرك العقل الشيء التحريضي أو المتخوف والمرعب، فيظهر على الفور آثار الغضب والخوف على الجسم بلا اختيار وبلا إرادة، والحال أنه كان لا بد من وجود القصد والاختيار في حيثيّة الحكومة، وعلى هذا القياس كل أثرٍ يصل من القوة العملية إلى العقل والروح، فهو متنوع بنوعين ويكون على قسمين، **الأول**: ثبوت منافع القوة العملية ومضارها للعقل بلحاظ المحكومية وكونه آلة - له - **والثاني**: رفع العقل التكليف أو الراحة من بعض الكيفيات البدنية بلا اختيارٍ، فتكدّر الطبائع النفسية من الوسخ والبول والغائط والبراز، أو التكليف في الحمّى ووجع الرأس وغيره، أو لذّة نظافة البدن أو الراحة في العافية، كلّها داخلة في هذا القسم، فبرؤية هذه التعلقات الخفيّة من الجانبين والتأثّر والفعل والانفعال تيقنّا قطعًا أن بعض أعمال القوة

العملية تكون مفيدة في حق القوة العلمية (العقل أو الروح) وبعضها تكون مضرة، ولا يخلوا فعل مّا للقوة العملية من هذا النفع والضرر، فإذا نفذ شخص كامل الذي ثبت صحة روحه وسلامة عقله من الدلائل القوية، فتوىً في حسن الأعمال وقبحه، ووجدنا عمل قوتنا العملية على خلافه، فينبغي لنا أن نطمئن أنه قد ابتلت قوة عملنا في المضرة، أو بالتعبير الآخر: في المرض، وبوفق قانون التأثير والتأثر الذي ثبت الآن فيما بين القوة العملية والعقل، يقال بأن القوة العلمية يعني العقل أيضا ليست على حالتها الأصلية، بل هي مبتلى بالمرض؛ لأن العقل لو كانت في حالة الصحة، ونفذت الأحكام الصحيحة بالقوة كلها، فالقوة العملية التي هي محكومة لها من كل وجه ومن كل جانب، لا تستطيع أن تعدل عن حكمها أصلا.

ويظهر اضمحلال العقل وضعفه أزيد منه وقت ما إذا كان هو واقفا بذاته وبنفسه من فوائد عمل أو نقصاناته، ومن غلبة الشهوة أو من تأثّر النفع الجزئي المعجل يُعمل القوة العملية على خلاف حكمه الأصلي، حتى أن العقل بممارسة ذلك العمل يصير مجنونا، بأن يعدّ ويفهم ذلك المرض صحة، ويظهر بتتبع كل زمن وحالات كل قوم أن أكثر الأفراد فيهم يكونون مبتلى في مثل هذه الأمراض الروحانية.

أمثلة على اتباع مخالفة العقل:

لماذا تذهب بعيدا، شاهد أحوال عصرك، بأن أكثر الناس في الأمور الكبار التي يعلم الجميع حسنها وقبحها، يعملون قصدا على خلاف العقل، وبالخاص الأمراض الخفيّة التي قلّما يعلمها المريض أيضا ويحسّها، ولو شخصها الطبيب لشخصها، وحالة أكثر الأرواح أنها بسبب ابتلائها بهذه العِلل والأمراض من الطفولة إلى نهاية الحياة، لا تكون مأنوسة من لذّة الصحة، وبقطع النظر عن البغض والحسد والبخل والتكبر والعجب وغيرها من الأمراض، تلك الأمراض العامة التي ينبغي أن يقال لها: الأمراض الوبائية، تأتي في الوقوع وتقع في غاية الكثرة، انظر إلى أي قوم تريده، ففي الزواج والهمّ وما سواهما من المعاملات أيضا فهم متقيّدون بقيودات وبرسوم قبيحة التي يقرّ بضررها كلّ من العقل والقلب، وهكذا كلّ فرقة جالسة

مطمئنة على عقائدها المختلفة المنفردة، وإن تقرر فرقة من سائر هذه الفرق على الحق، فيكون حينئذ أيضا أكثر الناس على الباطل، ثم لأكثر الأقوام بعض عاداتها خلاف عقل بأن قباحتها مسلَمة عند جميع أهل المذاهب، راج في بعض لباني الهند، وساكني جبال أفغانستان، وأعراب العرب؛ السرقة وقطع الطريق، حتى أن هذه الأشياء القبيحة لا توجب الطعن والتشنيع في ظنهم رواجا ولأجل الرواج فيهم، والترقي للزنا في قوم الطوائف إلى درجة أنهم يفهمون حرفة لهم مكان عيبهم هذا الفعل القبيح الشنيع، وصار يضرب المثل بجبن بعض الأقوام وبخلهم، ووصل نوبة شرب الخمر وعدم الستر والحجاب وترك الناموس في بعض الأقوام حتى أنهم يرون نتائجها القبيحة مسلسلا، ولكن لا يقولونها بألسنتهم، فالحاصل نستطيع أن نقول بألفاظ مختصرة: بأن النظام جميعا متعطل، وبأن التعطل ساري في جميع الناس، وبأنه سرى الفساد في المعاشرة والاجتماع بحيث أن رجاء إصلاحه قليل جدا، ففي هذه الحالة السيئة الوضيعة الذي لا يخلوا عقل مَا (إلا ما شاء الله) عن المرض، إن قال المجدد (لألف الثاني): أن طريقة النبوة منفردة عن طريقة العقل، فقال صحيحًا جدًا عندنا؛ لأن طبيعة المريض قد ترغب إلى الأشياء التي هي تكون مضرّة له، وتنفر من الأشياء التي هي مرغوبة له طبعا في الواقع، وذو الحمي يصير متنفرًا من الطعام أكثريا، ويميل الإنسان بلا اختيار ويرغب إلى حكّ الجلد الذي أصابه الجرب والحكة، ولكن تلك النفرة وهذه الرغبة كلاهما في غير المحل، وهذا المرض هو الباعث لهما، فالآن لو نفذ وصدر المجدد - رحمه الله تعالى- أو العالم الآخر هذا الحكم بأن المذهب عبارة عن مجموعة مرغوبات العقل السليم (وفي الحقيقة أيضا هكذا) لجاءت ولوصلت حيلة مرضية للحرية يعني : لمطلق العنان، في يد هؤلاء مرضى العقول، ولما أقاموا الفرق أبدًا بين العقول الصحيحة والسقيمة، ولظهر وانتشر الفساد العظيم في الدنيا بسببه، ولانتشرت الضلالة مكان الهداية، فعلى كل حال: أنه لما سهّل أصلاً تصديق وتفهيم هذا الأمر بأن أكثر عقول الناس بسبب ابتلائهم بالأمراض ليست بقادرة أن تميّز في جميع الأخلاق والأعمال بين صالحها وسيئها ومفيدها ومضرها بالتيقن والاطمئنان، فبالاضطرار قد بدّ من

تقرر الرجوع إلى طبيب حاذق في هذه المعاملة، الذي لا يخطئ رأيه أبدًا، والذي يكون واقفًا والذي يعرف خواص وخاصية جميع الأدوية والأوزان، مع ترحّمه الكامل على مرضائه، والذي يعرف الفرق الدقيق بين الأدوية المختلفة وتأثير الأغذية، والذي يكون نظره على اختلاف المواسم وعلى تراكيب الروح حاويًا كاملاً، ولكن مثل هذا الطبيب لا نراه ولا يرى سوى ذاك الحكيم على الإطلاق الذي قام بوجوده وجود جميع العالم، والذي تقدّس ذاته من كل قسم من العيوب والأمراض، والذي سنثبت وجوده وكمالاته في رسالة مستقلة بالدلائل الواضحة (وهذه الرسالة قد طبعت باسم "العقائد الأساسية للإسلام"، باللغة الأردية) وبقدر ما جاء الهاديون إلى الدنيا، والعباد المقدّسون الذين أرسوا وأرسخوا عُملة نبوتهم، وكم مضى المبلّغون للشرائع الصادقة جميعهم، مربّون من مطب هذا الحكيم المطلق، ونسّاخون لنسخ مطب هذا الحكيم المطلق، وهم دائمًا أرائوا الناس إسناد الفضيلة لهذه الجامعة الروحانية، وقدّموا الشهادات الفخرية والعلامات التي أعطوها من الحكيم الحق، والموهوبة من الحكيم الحق، لكي يتميّز عباد الله الأطبّاء الحاذقين والماهرين، من الأطباء المتحذقين والمتمهّرين المشهورين، ولا يغترّ في معرفة المرشد المصلح من المفسد والمضلّ، ولا يشتبه المحافظين بقطاع الطريق، وإذا سنبحث مبسوطا عن ضرورة النبوة وتعين النبي فسنذكر في ذلك الوقت تلك العلامات التي تُعلم منها بنسبة الشخص الخاص والمعيّن أنه متعلم فائق وأعلى، وفي الدرجة العليا، في مدرسة الإله الحق، وهو مستحق في الدنيا واقعيا لنيابة ولخلافة الحكيم على الإطلاق، ولكن في هذا الموقع بنهاية الاختصار وغاية الإجمال نريد هذه الإراءة فقط بأن أيّ الشرائط ضرورية في الإنسان عادة لأخذ فيوضات الله تعالى وليكون الإنسان مظهرًا لعلومه وكمالاته، أو بألفاظ أخر: على أيّ استعدادٍ يتوقّف حصول الطب الروحاني في مدرسة الحق تعالى، وبلا شكّ لا نستحق الدخول في مثل هذه المباحث العميقة، وفي الوادي الذي نريد وضع القدم فيه تصور قطعه بالسهولة، لا اعتبار له أزيد من أفكارنا الخارج من الهمة والاستعداد

الطيران العالي، ولكن أي بال لصعوبات الطريق لذلك المسافر الغير الواقف ولغير العارف الذي يوجد لعونه مبصّر في الدرجة الأعلى والعليا وهادي مجرب.

ثناء المؤلف على تأليفات العلامة القاسم النانوتوي:

ونحن سابقا أيضا الطرق المعوجة والمظلمة التي عبرناها وطييناها فوصلنا إلى هذا المقام، لو لم تكن تصنيفات القاسمي مضيئة لطريقنا، لم يكن طيّها وعبرها سهلة، وسترى الآن أيضا إن شاء الله تعالى أن بضيائه مقابلا للمهالك والخطورات في منزلنا الآتي، سنصل إلى مقصدنا الأعلى نقيا، وذاك الذات الميمون المبارك الذي قرّبت قوته القدسية أسرار الشريعة الصادقة المعتدة، والنظري في النظري إلى حدود البداهة، وإن كان بنفسه وذاته رفع من الدنيا، ولكن آثاره وذكرياته اللامندرسة حية وحيية أبدًا لرشدنا وهدايتنا، لا مبالغة في هذا الأمر قطعا أنه لو لم يكن تمكني من كتب الغالية للشيخ محمد قاسم (روحي وأرواحكم فداه) لم أتجرَأ أبدًا لرفع القلم بلا خوف وخطر على مثل هذه المسائل الحاسة واللطيفة، فلو أنسب لنفسي مقالة التي هي في الحقيقة مأخوذة من تصانيف مولانا المرحوم لأظهر العظمة والتفوق غير الواقعي، فيتصور هذا من نسيان الجميل جدا وخيانة قطعا، ولا أتمنى لنفسي أزيد من هذا الحسن الحظ وفائزا المرام بأن يتأدى المقالات والتحريرات العالية لمولانا في أسلوب تحريري، بأن يكون تعبيره مفيد وصحيح لمدّعاي، وأن لا يكون تقريب الدلائل ناقصا وغير تام من قصور فهمي واضطراب خطبتي، ففي هذا الوقت أيضا البحث الذي يبتدأ يكون تصرفي فيه بهذا القدر فقط، وهذا البحث الذي بابتدائه يبتدأ تحريرنا اليوم ثانيا، هو في الحقيقة بحث النبوّة، ونحن نريد الآن أن نُري لمحض الحق وبالانصاف لا بالتعنت والتشدد هذا بأن ذاك المفهوم المملوء عظمة وجلالا الذي وُضع له ألفاظ النبي والرسول وغيرهما، هل يوجد أفراده في الخارج حقيقة وواقعة وواقعيا، أم هذا تخيّل من تلك التخيّلات الهائلة الجيّدة المتقنة، الذي يخترعه ذهن أناس مغلوبي الوهم في وقت الفرصة جالسين في الخلوة، وبسماع هذا الاحتمال الأخير الذي يكون منه سوء الأدب الملحدة جدا في

شأن النبوة، نحن نخاف أن يشك ويتردد في إيماننا أحد من المسلمين الجيّاشين، فيصول علينا فيحزن علينا ومنّا، فنقول بالأدب لمثل هؤلاء الأحبّة بأنه يكون من الأفضل بأن يصرفوا غضبهم اللائق بالمدحة والممدوح وحماستهم وثورتهم في خفض رؤوس وتسفيل راية أولئك الدهريّين مطلقي العنان الذين نقل القرآن الكريم ألفاظهم التي تنطق بها ألسنتهم : "ما يهلكنا إلا الدهر"، "وإن هي إلا حياتنا الدنيا"، وغيرهما مكان وبدل أن يصرفوها في حقّنا المسلمين الناقلين، والتي ينادي العدد العظيم في الأيام الحاضرة في بلاد أروبا بلسان القال، وفي قارة الهند بلسان الحال: أن وجود الله تعالى وجود فرضيّ، والنبوة والرسالة اسم لمرض الصرع والغشي، والاعجاز والكرامات هي أساطير الزمن الماضية لاعتقال النظر، وحبس نظر المرء لرؤية حقيقة الشيء، وما حقيقة الوحي والإلهام أزيد من أكاذيب الدواوين، وهذا الناس يريدون امتثال مشورة عقل واحد وهي أيضا عقلهم فقط، وفي مذهبهم الانحراف عن جادة العقل وطريقته حبة واحدة هنا وهاهنا مساوٍ للكفر والشرك، أو على الأقل للمعصية الكبيرة، وأيضا الشخص الذي سنحت له الفرصة في الافهام والتفهيم حول المسألة المشكلة، ولكن بشرط أن يكون مسلمات مخاطبه الأحمق أقل قليل أيضا، يمكن أن يقدر أن القيام بأداء الواجب من الشبهات غير المقيدة التي سبق ذكرها والتي ذكرت سابقا للفرقة الحرة واللامقيّدة، كم هي من أصعب المراحل، وأن مولانا (فداه أبي وأمي) كم عمل في مقابلة هؤلاء اللامذهبيون بالثبات والاستقلال والمعقولية، ولمولانا سؤال واحد فقط من هذه الفرقة اللامقيّدة الحرة، وهو أن التفاوت بين الصالح والسيء في جميع المخلوقات، والفرق بين الصحيح والسقيم والدرجات الامتيازية للأعلى والأدنى التي أقامها عقولكم وعقولنا، أي معيار وميزان للعقل لها؟! لماذا حسّن العقل الحيوانات على الجمادات؟! ولماذا أعطى العقل الفضيلة الحسنة للإنسان باعتبار جميع الحيوانات؟! ولماذا يكون العقل مدّاحا للعلم في مقابلة الجهل دائما؟! ولماذا يريد العقل رفع مآثر الهمّة والشجاعة خلاف الجبن والخوف وعدم الرجولة؟! وبالجملة، لماذا يرجح الوجود على العدم؟! والوجوديات على العدميات؟! والكون على عدم

الكون؟! والاستغناء على الاحتياج؟! والراحة على التكليف؟! وأي نموذج عنده الذي يستحق كل شيء في المخلوقات أن يكون صالحا أو سيئا لكونه مشابها ومناسبا لذلك الشيء، أو ليس مناسبا ومشابها له، فمثلا إن سلّمتَ الثوب للخياط الذكي الماهر للقطع والخيط، أو ذهبت إلى السوق، وأردت شراء القلنسوة الحسنة والنعلين الجيدة، فلا شك بأنك تستطيع أن تنظر لحسن هذه الأشياء وصفاتها وموزونيتها وغير موزونيتها بالعين التي أُعطيتَ من جانب القدرة لمثل هذه الأفعال، ولكن في هذه الرؤية يكون من الضرورة لك أن تطابق هذه الأشياء على عدة مقاييس ومساطير ومعايير، مثلا تلبس الثوب على البدن، والنعلين في الرجلين، وتضع القلنسوة على الرأس، فتنظر إن كانت هذه الأشياء لا ينطبق على مقياسه ومسطره، بل تكون ضيّقة أو واسعة، فستردّه فهمًا لك له بأنه غير موزون، وإن طابق شيء من هذه الأشياء بصورة مرضية على مسطره ومقياسه اتفاقا، فأنت تعلم بنفسك بأنك تقدّره إلى أيّ حد ما.

العقل ومعرفة الحسن والقبيح:

وهكذا تمامًا ينبغي أن يكون عند العقل مسطر لتمييز كل صالح وسيء، ولمعرفة كل حسن وقبيح معيارٌ ، الذي يعلم بانطباقه وعدم انطباقه مراتب حسن كل مخلوق وشيء وقبحه، وفي الغالب في عاطفة فطرة كل عقل - كما سنثبته قريبا - يوجد إدراك ذات عظيمة سوى المخلوقات، الذي لكونه عين الوجود ليس فيه ولا يحمل في ذاته الشريفة شائبة العدم والزوال، ولهذا هو مستغن عن كل قسم من الاحتياج، وهو حي عالم قادر متكلم، ويريد ويختار، وبالجملة هو جامع لجميع الصفات الكمالية والحسنة، ومبرء عن كل عيب وقصور.

فالآن إلى أي حد يجد العقل بوفق وصوله ونظافته وجلائه مخلوق مّا، مناسب لهذا الشيء الوحيد، فإلى ذلك القدر والحد يعلمه ويعدّه أعلى وأفضل، والشيء الذي يكون بعيدَ المناسبة منه فبقدره العقل يدفعه إلى جانب السفل والأخفض والأدنى، مثلا ذلك معيار مرتبة فهم العقل (الذي نقوله بالتعبير الآخر: الإله، الرب،

الألوهية) لأنه وجود فوجود فقط، لا اختلاط فيه للعدم أصلا، فلهذا يرجّح عقولنا دائماً الموجودات على المعدومات، ثم في الموجودات أيضاً في أي شيء يرى ظهور صفات الرب فيه زائدا مّا، فبتلك الحيثية يسلّم تفوق هذا الشيء بمقابلة الذي لا يوجد فيه هذه الصفات، انظر بما أنّا نفهم بأن الله تعالى حيّ، وليس بلا حياة، وقد رأينا في هذا الباب أن الإنسان والحيوانات لهم مناسبة زائدة بالله تعالى، وليس للتراب والماء والهواء والنار والشجر والحجر وغيرهما مناسبة، ففهمنا أن رتبة الحيوانات أرفع من رتبة الجمادات، ثم تخيّلنا وتصورنا وفهمنا بأن المولى الكريم عالم ليس بلا علم، وكل إنسان يمتاز في العلم والعقل عن باقي الحيوانات، فثبت أن الإنسان أشرف وأفضل في جميع الحيوانات، ثم الإنسان أيضا متفاوت في العلم والأخلاق والأحوال والأعمال، وزائد فيه وناقص، فالذي يكون زائدًا في العلم ويتخلّق بأخلاقٍ كالقدرة والجود والحلم والعفو وغيرها مثلا، التي هي أخلاق وصفات لله تعالى، فلا شك أنه يعدّ فائقا في أقرانه، وعلى كل حال، كل شيء يقوله ويعدّه، ويحكم عليه العقل بالحسن والقبح، يطابقه على مقياس ومعيار ونموذج ابتداءًا أو انتهاءًا، فينظر إليه، فلما أنه هناك فرق كثير في العقول فيما بين العقول، سرعة وجلاءا وطهارة وتوجّها، فلهذا ينبغي أن يكون التفاوت كثيرا في علم هذه المطابقة والمناسبة.

لطافة الأرواح:

فالآن تفكر أن جميع أشياء الكون أرواحا كانت أو أجساما، أخلاقا كانت أو أعمالا، معانيا كانت أو ألفاظا، مع أنه يناسب بالله العظيم تعالى نوع وقسم مناسبة؛ لأن أصلهم هو الخالق الصمد، ووجود كلهم فرع وجوده، ولكن في هذه المناسبة في المخلوقات تفاوت وبُعد كتفاوت السماء والأرض، والقرب الحاصلة للأرواح مع جناب الباري عزّ اسمه بسبب لطافتها ليست حاصلة قطعا للأجسام الكثيفة، وفي الأجسام أيضا مثلا النار لطيفة ودقيقة من الهواء، والهواء من الماء، والماء من الطين والتراب، فعلى هذا الترتيب يحصل لكل واحد منها نوع مناسبة وقرب مع الله

تعالى، ولعل أثر هذا القرب والبعد أن الأشياء اللّطيفة مع هذه اللطافة والدّقة تكون منها تلك العجائب الظاهرة التي لا تكون من الكثيفة أبدًا، البرق ينزل من السماء إلى الأرض في طرفة عين، ثم يرجع ويصعد إلى السماء، وفي سرعة هذا السير والسفر لو جاء أمامه جبل أيضا فلا يعدّه ولا يتصوره حقيقة قدر ذرة أيضا، وهذا حال شعاع الشمس والقمر بأن سرعة البرق أيضا أمامهما نقع وسراب، أين الأرض وأين السماء الرابعة، يحصل شيء من التأخر في تصورهما وتخيلهما ولكن في وصولهما إلى هاهنا لا يكون هذا التأخير أيضا، وعلى هذا القياس انظر إلى نظرك وتفكر في سرعة الأصوات ووصول وبلوغ الخيال والوهم إلى أي قدر يكثر اللطافة، يكثر بقدرها الطاقة والقدر، ولا وجه له سوى أن الأشياء اللطيفة قد يحصل سهمًا بسبب قربه ومناسبته من فيضان كمالات الله تعالى التي لا تحصل للأشياء البعيدة المناسبة، ونظيره في الظاهر بعينه هذا بأن نور الشمعة تضيء وتنوّر الأشياء التي حولها كثيرا، ولكن الأشياء البعيدة لا تكون مضيئة ومستنيرة بقدرها، فالأخلاق الحميدة التي هي موجودة في ذات الله المبارك، فإن وجد في أيّ فرد منها قليلا أو كثيرا، فلا شك أنه يكون لهذا الشخص القرب الروحاني من جناب الباري بقدر مطابقته وطبقه للأخلاق، بالنسبة للأفراد التي لا يكون فيهم هذا الأخلاق، والعنايات والإنعامات الخاصّة للرب الكريم التي تكون مبذولة على حالة هذا الشخص لا تكون ميسّرة للآخرين.

وستعلم بالوضاحة والتفصيل كما أن في الأرض والسماء ظهور نور الشمس في الأطراف الأربعة وفي الجوانب كلها، وبسببه تقوم الامتياز في الحمرة والبياض، والفرق بين الحسين والقبيح، ويضيء نورها في ومن كل فناء وشباك ومكان بقطعات مختلفة، هكذا وجود جميع العالم نتيجة نور وجود الرب الحقيقي تعالى، فكما حصل للشمس مع عموم الفيض هذا، خصوصية خاصة بالمرآة الكلس والمرآة النارية، التي ليس مع الأجسام الآخر (انظر أن في المرآة النارية سوى الضوء ورود ويأتي فيها من الشمس الحرارة الخاصة والأثر النارية، والأجسام التي وضعت هناك حولها، لا خبر لها مطلقا لهذا التأثير، أو في المرآة الكلس إظهار نور

الشمس فيها إلى هذا القدر، أن في هذه الصورة الأجسام الأخرى تكون مستنيرة ذاتها مستفيضة من الشمس، وهذه المرآة تضيء بنفسها مثل الشمس، والأجسام التي في حيازها ومقابلها تلقي ضوءها عليها أيضا).

هكذا ينبغي أن يفهم فيضان الله تعالى عاما وخاصا، بأن هذا الفرق أي فرق سوى فرق المناسبة وفرق القابلية، وإلا فظاهرٌ كما أن الحجر والمرآة متساوية للشمس، هكذا جميع المخلوقات مستوون ومتساوون لله الصمد، لا مشاحة من أحد، نعم قابلية المخلوقات ومناسبتها متفاوتة كثيرا وجدا، فالناس الذين هم طاهرون من الباطن، وممتازون من بني نوعه، كالمرآة من الحديد، يعني كما أن المرآة في الأصل هي ذاك الحديد التي صارت مرآة شفافة بسبب زوال الأوساخ والأصداء، هكذا ذلك الناس أيضا يحملون تلك الحقيقة والروح الإنساني مثل بين آدم آخرين، ولكن بفرق أن هذه أرواحهم وأرواح هؤلاء طاهرة ونقيّة بسبب عدم النجاسات والكدورات، التي تكون بسبب التعلقات الخفية والعلاقات المضمرة، مع الكدورات والنجاسات.

الفيض الربّاني على الأنبياء والمرسلين:

وذلك الناس لا عجب أن يكونوا ممتازون ومعزّزون بالنسبة إلى بني نوعه، ويصل إليهم بعض الفيض من الله تعالى التي لا خبرة لنا ولكم به، يعني نحن وأنتم نكون محرومون بأنفسنا من ذلك الفيوضات ولو أن نستفيد بواسطة هذه القلوب الطاهرة التي ترد أولا تلك الفيوض عليها، فقط قدر ما يضيء و ينير، ويستفيد الجدار والبيت من المرآة المنوّرة أو الأشياء الخضرة أو السوداء وغيرها القابلة للإحراق من المرآة النارية، وبالجملة يمكن كما أن وقت حيازة الشمس يأتي في باطن المرآة النارية أو المرآة الكلس فيض من الشمس التي لا يعلم ظاهرا، ثم بعد حصولهما لا يجوّزان هذين مطلق البخل والاجتناب عن إيصال فيضهما بقدر الطاقة، بل كل شيء يأتي أمامهما ومقابلهما تكون مستعدة لإدخاله في حلقة أثره، وهكذا ما العجب أنه ينزل على قلوب بعض بني آدم التي تكون قلوبهم طاهرة من

الكثافة الجسمانية والكدورات النفسانية، حرارة حب الله تعالى الذي لا يكون للغير ولأحد اطلاع عليه، وهي كالمرآة النارية تشربها وتجذبها بنفسها وتحملها، ولكن بشعل النار في قلوب الآخرين وبتنقية جميع الكدورات وإزالتها، تجعلها طاهرة نقية كالحديد بالجلاء يُجعلها مرآة شفافة، ثم من هذه النور الإلهية التي مثل المرآة ينزل على قلوبهم خاصة، ولا يُعلم نزوله أيضا، وظاهره مثل البيت والجدار، وباطنه مثل تلك المرآة التي لا تكون مقابلة للشمس بذاتها، بل تكون مقابلة للمرآة التي تكون هي مقابلة للشمس، بكمال كمالا تضيء وتستنير، يعني فيضهم يغدق ظاهر ذلك الناس وباطنهم الذين يتوجهون إليه بصدق قلوبهم بحيث لا يبقى اسم الكدورة ولا أثرها، وبالأعمال القيمة والأخلاق الفاضلة يزيّن ويرصّع ظاهرهم وباطنهم تماما وجميعا وحسنا وكاملا، ولا نتمنى من أصدقائنا في هذا الحين سوى أن لا يستبعدوا مثل هذا التعلق الخاص بين الرب عز وجل (الذي هو مخزن الكمالات) وبين بعض الناس، كما أنهم شاهدوها في المرآة النارية وغيرها والشمس، فإنهم إن لم يتأمّلوا في إمكان تسليم مثل هذه التعلقات الخفيّة في ما بين الخالق والمخلوق (ولعله لم يبق التأمل غالبا فيه) فنحن بعد قليل من التدبر والتأمل والإمعان نستطيع أن نطوي تلك الخصوصيات التي يستدل بها على صداقة عدة الأشخاص المعيّنون أو الشخص الواحد الذي كان مدعيا لهذا التعلق في زمان مّا.

الثبوت العقلي للنبوّة:

ولكن نحن الآن في هذه الورطة من الحيرة بأنه مثلا الآن وقت الظهيرة، والشمس على نصف النهار تماماً، والأحجار والحصيات وغصون الأشجار ورمال الأرض والقطعات السوداء من الحديد، وبالجملة مئات الأشياء وآلافها أمام الشمس ملقية وفي حيازها ظاهرة، ويرى كل شيء منها منفردًا منفردًا في ضوء الشمس، وفي كل منها يحسّ حرارة الشمس شيئا مّا أيضا، ولكن في ما بين هذه الأشياء المختلفة الأنواع، وقريب من هذه القطعات السوداء الحديدية، شخص جالس الذي في إحدى يديه المرآة الحديدية، وفي الأخرى الرداء الأسود أو

الأخضر، وفي حين مقابلة مرآته بالشمس، يجعل الرداء في مقابلته وحيازه، ففي ذلك الحين يشتغل النار في الرداء ويرتفع الدخان منه، وعندما تتنحى المرآة من الشمس أو الرداء من المرآة، فلا يبقى ذلك التأثير الناري، وعندما نبيّن هذه القصة العجيبة التي جرت للمرء الأجهل والمتعصّب، فهو يسلّمه بغير أيّ استعجاب، ولكن مع هذا هو بالجرأة المتأسّفة الكثيرة، يجوّز الاستهزاء فاهماً له بأنه محال عندما نقوله له بأنه قد كان في صحراء ملساء غير ذي زرع ولا ماء، التي قد كان اجتمع فيها أناس مختلفي المذهب، ومختلفي الطبائع، ومختلفي الألوان، التي كانت لا تلقي أشعة شمس الكمالات أيضا أثراً عميقاً، على قلوبهم الصلباء والسوداء مثل معبودهم الحجرية، وروحانيتهم اللطيفة سترت وغطّت نفسها تحت الكثافة المادية المنضدة بعضها فوق بعض، والتي بسبب حركاتهم الجاهلة وسكناتهم الجاهلية، وطرباتهم ومرحاتهم السيّئة الشنيعة، فسدت الصورة الأصلية، لمرقع أخلاق الدنيا، بحيث لا تعرف حقيقتها وأصليتها، ففي ذلك المكان والمقام ظهر شخص صفيّ وصاحب الضمير المضيء والمنير المستنير، الذي أودع في قلبه فطرة الاستعداد الكامل للاستفادة من الكمالات الإلهية، والذي اختار طريقة كانت موصلة إلى الخالق الحقيقي من ابتداء الرشد، بغير أيّ معلّم ظاهري، متفرداً ومتنحياً من جميع الخيالات التي حولها، والتصورات الذي حوله، وهذا الشخص الطاهر والطيب الطينة والطبيعة، بسبب الأخلاق الجميلة والملكات الفاضلة التي جاء بها من بطن أمه، قام بها المناسبة والقرب الأخص بهذا الخالق منبع الكمالات، وإذا جلس ذلك الطيب الخلقة والطينة عبد الله تعالى، بالطلب الصادق من القلب ومن فؤاده، قاطعاً ومتسامحاً جميع التعلّقات الفانية، في جانب الإله ذي الجلال، فلا علم كيف نزل ضوء حار إلى عمق قلبه بالطريقة الغير المحسوسة، بأن بعد ذلك كل قلب جاء أمامه وصار تِجاهه، أحرق جميع كدوراته وأوساخه وأدرانه، حتى جعله معدنا صافياً، وذهباً خالصاً، وكبريتاً أحمراً، فهل يستطيع حامي العقل والعدل أن يُعلمنا ويُخبرنا بفرق في هاتين الواقعتين التي ذكرناها، سوى فرق المادية والروحانية اللّتين قررت أحداها قابلة للتسليم عند مخاطبنا الأحمق، والأخرى استهزئت

واستضحكت منها، فاهماً لها غير ممكنة ومحالا، بلا شك أن مثال المرآة الناريّة والشمس مثال جسماني الذي لا نستطيع أن نقدّمه بقاعدة المنطق والعقل في استدلال المسألة الروحانية، ولكن اطمأنّ أنت بأنّا ما أردنا أن نجعله استدلالا، ولا ضرورة لنا في جعله استدلالا في الحقيقة، وقد أخبرنا في أوائل التحرير بأن غرضنا الأصلي في هذا الموقع هذا القدر فقط بأن لا تنكر إمكان تعلق مخصوص في ما بين الله تعالى والعباد، الذي يتعلق به بعض إفادات الله تعالى الخاصة، فإن تفهم وتعدّ هذا التعلق غير ممكن ومحالا، ففي الحقيقة تكون مدعيا أنت، وإثبات قول من البرهان والاستدلال يكون من منصبك بحيثيّة المدّعي، لأن هذه القاعدة بديهية أنه إذا كان النزاع في وجود الشيء وعدمه، فيعدّ مسلم الوجود فيه مدّعيا، وعلى خلافه إذا كان الكلام في امتناع الشيء وإمكانه (الكون وعدم الكون) فالمدعي حينئذ هو الذي يفهم الشيء ممتنعا وغير ممكن.

بهذا الاعتبار إن أو: لو قلتُ بغير زيادة التوضيح أنه يمكن بعض تعلقات في بعض العباد وبين الله تعالى التي لا توجد في غيرهم من بني نوعهم، فلم يكن لأحد استحقاق مطالبة دليل مّا مني، بل كان يحقّ لي بأن أطلب الحجة ومن مخالفيّ الذين يفهمون مثل هذه التعلقات محالا، ولكن تركت جانب المناظرة، وأتيت بالنظير المحسوس والمشاهد، تبرعا للمدعي؛ تقريبا للفهم، وتسكينا للخاطر، ورفعا للاضطراب، لكي أن الناس الذين ليسوا بمعتادين بوضع قدم واحد وراء الماديات والمحسوسات، هم أيضا يقفون في الجملة من نوعية هذه التعلقات الغير المحسوسة، وهذا القول صار اتفاقياً ومفيداً جداً، بأنا لما كنا نبحث في هذه التعلقات المضمرة والخفية بين الخالق والمخلوق، وكنا نرسخها في القلوب بالأمثال والنظائر، فتوفّرت الفرصة لنا في استكشاف عدد أصول وأسباب التي يتفرع هذه التعلقات عليها في الواقع، لأنا عرفنا أن بناء ومدار هذه التعلقات الخاصة على تلك القرب والمناسبة التي تكون حاصلة للإنسان من الله تعالى، الذي يكون كاملا في لطافته الروحية وبسبب اتصافه بالأخلاق الحميدة، وبهذا يمكن أن نقول بأن الشخص الذي يكون موصوفا بهذه الأوصاف العالية، حاميا للطريقة

الموصوفة - آنفا - ومحترزا من الأخلاق الرذيلة والذمائم، فلا يبعد له أن تكون عليه الإفاضات الخاصة في باطنه من الله تعالى بسبب القرب الروحاني له منه تعالى، الذي لا يكون لغيره من بني نوعه، وجعله الله تعالى مرآة لكمالاته، ومن وجه وأجل شأن هذه المرآتية تنعكس في قلبه أمور الله تعالى الغامضة ودقائق مراد الله تعالى جلّ جلاله.

افرض بأنا علمنا في الكون بذريعة معتبرة بوجود شخص واحد، أو أربعة وعدة أشخاص الذين يوجد فيهم هذه الصفات بالدرجة العالية وبالحيثيّة الكاملة، فبالقطع يمكن أن يكون هؤلاء الناس علاجا لألم عقولنا المريضة اللاتي ذكرنا مرضها مفصلا سابقا، والتي قلنا حولها أنها بسبب ابتلائها بالأمراض لا تستطيع أن تفرق بين حسن أفعال نفسها وسيّئها ونافعها وضارها، كالمرء المريض الذي بسبب حمّاه يعدّ الأطعمة النفيسة المرغوبة له طبعا، سيئة وكريهة، وكالمرء الذي يميل بلا اختيار إلى حكّ جلده ونحت بدنه بسبب الحك أو وجع الدمل، والحال أنه لا يعدّ هذه الحركة مفيدة قطعا في حالة الصحة.

النتائج الحاصلة من تقارير العلامة النانوتوي:

وهذه نعمة كبرى وإحسان كبير من الله الصمد بأني تحصلت على ذلك المقصد الذي أردت إثباته، وتحصّل من تقرير ومقالة مولانا محمد قاسم رحمة الله عليه من الابتداء إلى الانتهاء، هذه النتائج التالية:

١- لا بد لكل شخص من تسليم تقسيم الأفعال الإنساني إلى الحسن والسيء، سواء كان مذهبيّا ودينيّا، أم دهريا.

٢- العمل الذي قرّره العقل السليم حسنا أو قبيحا، فيكون هو كذلك، وأحكام الشريعة أيضا تكون مطابقة للعقل السليم.

٣- بين العقل والقوة العملية رابطة خاصة بأن أثر كل واحد منهما يصل إلى الآخر، وصدور الحركات المنكرة، والأفعال الذميمة من الشخص دليل على أن القوة العلمية (العقل) مريضة أو ضعيفة.

٤- العقل السقيم إذا أخبر عن شيء بأنه نافع أو مضرّ فلا يطمئن عليه، بل لا بد فيه للعقل السليم.

٥- يعلم الله تعالى حسن كل شيء وقبحه كما حقّه، أو الشخص الذي يخبره الله تعالى بمحض فضله وكرمه وعنايته إلى أيّ حدّ.

٦- يستفيد كل شخص من فيوضات الله تعالى وعناياته الخاصة بقدر قربه ومناسبته به ومنه تعالى.

٧- إلى أيّ قدر يكون أيّ عقل لطيفا، يعني يكون طاهراً وطيباً من الكدورات النفسانية، والكثافات المادية، مزيّنا بالأخلاق العالية، فبقدرها يحصل له القرب والتعلق مع الله تعالى ونستحق أن نسمي مثل هذه العقول بالعقول السليمة.

وبعد فهم هذه النتائج الواضحة والصريحة بل المهتمّة بالشأن ليس النفع فقط ولم ننفع فقط بأنا نجحنا في أحد مقصدنا الخاص بقدر الضرورة، بل كانت الانتقادات التي انتقدت على خطبة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى سابقاً، خرج لأكثرها الجواب أيضا من هذا التحقيق ضمناً، فالقراء الذين يتذكرون خطبة الإمام الممدوح، والشبهات المتعلقة بها، فهم بأنفسهم بإلقاء النظر مكررا على تقريرنا وتحقيقنا، أملا وهناك أمل مّا أن يجدوا جواباً لكل شبهة.

اعتراض الأستاذ سيّد أحمد خان:

نعم ما أتى وما جاء الجواب من اعتراض الأستاذ سر سيد أحمد في تحقيقنا إلى الآن؛ بأن عقول الناس عموما بسبب ابتلائها بالأمراض لا يفرّقون ولا يميّزون بين الصحيح والفاسد والصالح والسيء، ولا هي كافية في معرفة كل حسن وقبيح، فلما وكيف صحّ تكليفنا بالأحكام الشرعية من جانب الله تعالى، والحال أن الإنسان جعل مخاطبا بالأحكام الشريعة لكونه ذي عقل على خلاف وبخلاف جميع الحيوانات، فجوابه مختصرا فقط هذا: بأن الأشياء التي كلفتنا الشريعة بفهمها أو فعلها إلى تلك الحد، فليس فيها أي شيء خارج عن دائرة وإحاطة قدرتنا، وهذا النفع كافي في كوننا ذي عقل و في جعلنا وتصييرنا ممتازاً من أبناء جنسنا بأن

باطلاعنا على ألوهية الإله ورسالة الرسول، نعطي زمام جميع إراداتنا وحركاتنا وسكناتنا في اختيارهما وتحت يديهما وتصرفهما، وإجمالا نفهم هذا بأن الذيْن قد تيقنّا على صداقتهما هما ناصحان كاملان لنا، وذوو الحكمة الكاملة، ولا تخلوا الاستقامة واتباع وإطاعة كل من تعليمهما الأدنى من الأدنى والأصغر من الأصغر من الفلاح والنجاح، وإن كنا لا نطلع ولا نستطيع أن نطلع على الحِكم التفصيلية لجميع الأحكام أو لبعضها، وهذا بعينه مثل أن يفتي الطبيب الحاذق بكونه مفيدا أو مضرا حول دواء أو غذاء فنحن وإن كنا لا نعرف خواص ذلك الشيء وكيفياته، بل لا نعرف اسمه صحيحا وكاملا أيضا، وإن كان الشيء الذي يحكم باستعماله تكون منه النفرة، والذي يمنع منه تكون الرغبة إليه، ولكن بالاعتماد واعتمادا على تجربة وحذاقة الطبيب ونصيحته الذي سلمناه بمحض ظن واحد ضعيف، فنحن بنسبة هذه الدواء أو الغذاء نبدل طريقتنا السابقة، وفي وقت هذا التبدل لا يسمع للعقل الفقير أحد، بل نؤول هكذا تسليا أن اتباع العقلاء في الحقيقة هي اتباع للعقل، فبهذه الحيثية ما تحركنا حركة بغير إشارة العقل.

وهذه الحالة بعينها للمذهب والشريعة، ولكن نتعجب من التأسف وأسفا أنه أراد الأستاذ سر سيد أحمد محو خيالنا الصحيح هذا أو على الأقل اضمحلاله من قلوب الناس، بالمنطق الطريف والألفاظ العجيبة الغير المفهمة الحائرة، في المقام الذي يكتب فيه: بأن أصلنا هذا في غاية المتانة بأن الإنسان صار مكلفا بسبب العقل الذي فيه، فالأمر الذي يكون مكلفا عليه، لا بد أنه لا يكون خارجا عن فهم الإنساني، وإلا يلزم وجود المعلول بدون العلة الذي هو محال وممتنع، فالأخلاق التي عليها الإنسان مكلفا بأخذها وبالتحلي بها، أو تركها وبالتخلي عنها لا بدَ أنها تكون ليست بخارجة عن عقل الإنسان.

سؤال من الأستاذ سيد أحمد:

فسؤالي من الأستاذ سر سيد أحمد أنه ما المراد من العقل الذي يجعله علّة للتكليف الشرعي؟ هل وجود قوة الإدراك في الإنسان فقط، أم علم كل شيء تفصيلا به، فإن اختير الصورة الأولى فكيف يلزم انفكاك العلة من المعلول في

صورة عدم الاطلاع على فوائد بعض الأحكام والأخلاق وعلله، وإن اختار الأستاذ سر سيد أحمد - معاذ الله - الشق الثاني، فلا أسلّم أن العلة التي قررها الأستاذ سر سيد أحمد للتكليف هي صحيحة، وأنت تتحيّر عندما تسمع بأني لا أسلم هذا الشق، والأستاذ سر سيد أحمد بنفسه أيضا لا يرضى على اعترافه، فيكتب في الحصة الثانية لهذه المقالة: أنه يثبت من هذا البيان الذي هو مستقيم وواضح ظاهرا، ولا اعوجاج ولا انحناء فيه، أن الحالة الطبيعية ليس بشيء في نفسه، ولا يليق بأن يتقرر أصل الأصول لمذهب مّا، ولا هي مستحقة لكونها مرشدة في حد ذاتها، نعم إذا تربّت طبيعة الإنسان على الأصول الصادقة أو تأثرت طبيعته من الخيالات الصادقة، وأوجدت الطبيعة حالة وفق الصدق فحينئذ تكون تلك الحالة الطبيعية مرشدة للإنسان، ويكتب في مقام آخر: نعم هذا صدق بأن التدبر في قانون القدرة والتفكر فيه يكتشف تلك الأخلاق الصحيحة التي تصيّر طبيعة الإنسان على حالة لا تغرّ قطّ وأبدا، ولكن متى؟ وذا إذا يحصل لمعلومات الإنسان ترقى إلى حد ما، ويطلع على قوانين القدرة، وعلى مختلف القوى التي أودعها بانيها وخالقها في الإنسان، على حصة معتدّة بها، وجميع الناس لا يستطيعون أن يصلوا إلى هذه الدقائق، والذين يصلون لا يمكن أن يكونوا سوى بعض المعدودين، وهم أيضا ليس في عمرهم وحياتهم، بل في قرن بعد قرن، ونسل في نسل، فلأجل أن لا تكون حكمة ذلك القادر المطلق سدى، بدّ أن يخلق وقتا فوقتا على وفق حالة الدولة والزمن والوقت، هادي الذي أعطي مثل هذه المادة الخلقية، والذي يكون باعتبار فطرته مخزناً ومكنزاً لبيان هذه الأخلاق الصادقة.

فثبت من هذين العبارتين أيضا ومن بعض تصريحاته الأخرى أيضا، أن فهم العلة لجميع الأحكام الشرعية ولمّه كأنه ليس بخارج عن مطلق العقل الإنساني، ولكن ليس منصباً لكل عقل شخصي أن يدعي ويقعد مدعيا علم حقيقة كل علم وكنهه، فالسؤال على وفق أصول الأستاذ سر سيد أحمد هذا هو أنه ما سوى أولئك بعض الناس الذين يكونون عارفين ومطلعين على دقائق الشريعة (كالأستاذ سر سيد كان - منهم - بزعم نفسه) الذين ليسوا هم كذلك، كيف يصح تكليفهم، والحال أن

الأمور التي يحرّضونهم على فعلها أو تركها هي خارجة عن عقله الشخصي يقينيا، فلا بد من هذا وليس هناك طريق آخر سوى بأنا نحن المقيدين بالهوى ومرضى العقل نفهم أصحاب العقول السليمة الذين ذكرنا بعض أوصافهم قبلُ، أطباء روحانيين، ونتصورهم لأنفسنا على الأقل ناجيين من مثل هذا الموت الدائمي، والهلاكة الأبدية، كما إذا يحضر مريض جاهل في بيت طبيب حاذق لغرض التداوي، ويخيل بنسبته ويعتقد فيه، وكما أن المريض البدوي يستعد لأكل دواء الكنين - اسم لدواء خاص يستعمل في بلاد الهند - بل لدواء غير معلوم الاسم أيضا، بلا قيل وقال، بقول طبيبه المعالج، فقط على هذا الاعتماد بأنه عالم على خواصه ومنافعه ومضاره كما حقه، (وهو لا يقف عليه بنفسه قطعا) والحال أنه ليس بواقف عليه بذاته، هكذا بعينه يلزم لأصحاب العقول السقيمة أنهم يسلموا ويخضعوا رؤوسهم أمام أحكام أصحاب العقول السليمة، ولا يتوقف ولا يتردد ولا يتدخل لضيق القلب لآن واحد أيضا، في استعمال تلك النسخة وفي قيام الحمية التي أمر بها أصحاب العقول السليمة، ولكن بشرط أنه لم يبق له شبهة في الطبيب أنه طبيب، وأن النسخة بأمر الطبيب، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾.

الاعتماد على الطبيب الروحاني:

والممكن أن يثير ويسئل، ويرفع هذا السؤال بأنه لِما لا يجوز لأصحاب العقول السقيمة الاعتماد على عقولهم، والمشي والعمل على هدايتها وأحكامها، وما تقرر في معاملة شرعية ضرورة توثيق اقتضاءاتها العقلية وتصويبها، فأي ضامن لنا في تصديق وتطمين هذا أنه لا بد أن تنجح بالصحة والسلامة تلك العقول المريضة، في طلب وبحث امتياز العقل السليم والسقيم، وتشخيص الطبيب والمريض والمعالج والمستعلج، ولا يبقى هذا الاحتمال بأن الشخص الذي عدّوه صحيحا هو في الحقيقة يكون مريضا، والذي فهموه طبيبا منجيا هو يكون غير مؤهل وهالك له، ولكن ينبغي لمثل مقدمي هذا السؤال أن يتفكروا قليلا في أنه لو يأتي طبيب أجنبي

في قرية أجنبية، وأراد أن يتعارف في الناس من حيثية فنّه، والحال أن ذلك الناس ليسوا عالمين وعارفين وواقفين على نظريات الطبّ، وليسوا بواقفين على أنواع الأمراض، ولا يعرفون أنواع الأمراض، ولا العلم بصحة طرق العلاج وخطأه وغلطه سهلٌ لهم، ففي مثل هذه الصورة أيّ تدابير يلزم لهذا الطبيب اختيارها لنجاحه في مقصده؟ هذا الأمر ظاهر أنه أولا يذكر في المجامع والمجالس والندوات معرفته الطب حينا بعد حين، ويعلق لافتة كبيرة على مطبه، ويقدم أسانيده التي حصلها من مدرسة معتبرة معتمدة للخواص وقتا فوقتا، وبعد هذا يبدأ مجيء بعض الناس إليه اعتمادا على التذكرة العامة ومحض شهرته، والبعض بنية محض الاختبار، والبعض بسبب كونه واقفا على قدر مّا من أحوال الأطباء وأطوارهم، لغرض المعالجة، ويذهب بنفسه إلى بعض المرضى لإظهار زيادة اعتماده ولإلماع شهرة المطب، معرفا له التعلقات البعيدة، بدون أية معاوضة مالية، فالآن في جميع هذا الجد والجهد والسعي البليغ إن كان شفاء بعض المرضى مقدّرا من يده، فهي تكون باعثة لأول فلاحه وتكون منتجة لفلاحه الأول، ثم إذا يترقى هذه السلسلة حينا فحينا فبقدره يحصل لعزته وقبوليته الشهرة والرفعة المرتفعة، وهذا انتهاء بأنه بعد زمن قليل يصل إلى درجة ورتبة تلك الشهرة العامة بأنه لا يبقى ضرورة الفكر والتدبر والاستدلال للمرضى في وصولهم ومجيئهم إليه، وينسب الشفاء والصحة في محاورات العوام إلى جهده المعالجية، وكدّه الطبّيّة، والموت والهلاك إلى البخت والاتفاق، أو إلى المشيئة الأزلية، بل أزيد من هذا بأنه يتقرر تسليمه وتصديقه معيارًا لمقبولية الأطباء.

بعينه قس عليه حالة الأطباء الروحانيين، (الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) بأنهم لما يبعثون لهداية العالم وإصلاحه، فهم أولا يدعون بغاية القوة والشدة ومع التحدي بكونهم أنهم "من الله بشير ونذير"، ويشرع جهد وصوت دعوته وتبليغه من الأهل والعيال والأصدقاء والأقارب، ويوصلها ويبلغها إلى المشارق والمغارب، الذي بسماعه وسماع هذه الدعوة يتوجه إليه بعض الناس لأجل وسبب زهده السابقة أربعين وسنة ورياضاته السالفة، ومن أجل أخلاقه الطيّبة الطاهرة، وديانته

وإعراضه عن المال والجاه، وشرافته الحسبيّة والنسبيّة، والخوارق المستنيرة، أو الآيات البيّنات، وغيرها من الأمور، وكثير منهم يتوجهون إليه فطرة للامتحان والتفتيش، وكثير من السعداء الذين يجذبهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بإذن الله تعالى، إلى أنفسهم وجانبهم الكريمة، بالقوة القلبية والهمة الباطنية، وفي هذا الحين وفي هذه الفترة هؤلاء الناس لما يشفون من الأمراض الروحانية، وباضمحلال وذهاب الظلمة عن قلوبهم، لما تنعكس جمال الرب تعالى فيها، فينادون فورا بنسبة هاديهم قائلين: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾.

ثم برؤية هؤلاء المرضى أصحاء سالمين، وبرؤية هذا الانقلاب العظيم نظرا إلى حالتهم السابقة، تميل قلوب الآخرين، وتأتي لهم الغبطة ويغبطون على حالتهم الصّحيّة، ويجتمع الناس أفواجا وشوقا حول هذا العبد الطيّب، ويرافعون أمراضهم إليه، وكما تتسع هذه السلسلة، تفتح عيون العميان، وتتوفر فرصة العبرة للغافلين، وتأتي فرصة العبرة في أيدي الغافلين، ثم لا تبقى الضرورة في فهم كونه طبيبا حاذقا (أو نبيا مرسلا) للاستدلال، ولا لزيادة التدقيق فيه، ولا لإعمال التدبر والفكر.

معرفة الطبيب الروحاني:

والحاصل في الوقت الذي كان فيه ضرورة في معرفة الطبيب الحاذق (النبي) لإلقاء الحِمل والثقل على دماغه، ففي ذلك الوقت لبعض أسباب القدرة حصلت هذه المعرفة بغير إلقاء الحمل، ولما برزت نتائج حذاقته متمثّلة كأنّها بارزة أمام الأعين، ولما أن نتائج حذاقته امتثلت ظاهرة كأنها بمرأى الأعين، فلا تبقى حاجة الكدّ والجهد في هذا البحث مطلقا، وكل إنسان وشخص برؤية هذه النتائج المحسوسة والمشاهدة يستطيع أن يتيقن بكونه طبيبا حاذقا (نبيا) كرؤية ضوء الشمس في فناء البيت بطلوع الشمس في السماء، ولفهم هذا البديهي بل لأجلى البديهيات، يكفي للإنسان عقل مّا ولو كان عليلاً إلى أي حد مّا، ولكن على شرط أن يجتهد في إعماله، والذي كان ينبغي الاعتناق بشدة برؤية الحق، لا يغمض عينيه أصلا، وكما أشرنا من قبل أنه ليس مرادنا من العقول السقيمة بأنها لم تبق

فيها قابلية لفهم أمر كبير وواضح جدا أيضا، وأن سلبت منها استعداد إدراك المحسوسات أيضا.

ففكر أنت بنفسك أنه لو شفى عدة مرضى (الذين كانوا يئسوا من الحياة) على يد طبيب ذو تجربة، فينتشر صيته في بيت وبيت، ويرجع إليه المرضى مأيوسي العلاج من المدن البعيدة والقرى النائية، فالآن لو نفرض أنه بيد صحة طبيب، وبقول طبيب وبيده لو صحت قرية بتمامها أو دولة بجميعها من مرض - الحمى مثلا - أفيحتاج للاستدلال المنطقي لتوجه الناس إليه؟

أثرات البعثة النبوية لسيدنا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

مثلا إمام وقائد الأطباء الروحانية (كما بيناه في رسالتنا "الإسلام" - وهي مطبوعة باللغة الأردية - بالتفصيل، ونكتب بألفاظ أحد مؤلفي زماننا مستنير الفكر "الاصطلاحي" مصلحة) خلق في زمان لما كانت الدنيا في حالة سكتة روحانية عجيبة، وبعث في الدولة التي لم تكن وسائل التعليم الأخلاقي متوفرة وموجودة، ومتكاثرة، وفوّض إليه مسؤولية إصلاح قوم التي لم تكن فيهم صفة أخلاقية سوى الأوهام والعقائد الفاسدة، والخيالات الباطلة، والآراء الغالطة الخاطئة، والأعمال الوحشية، وسوء الأخلاق، والنفاق والجدال والحرب، ولكن أثّر بيانه الإلهامي والقوة الإلهية فيهم، أثراً عجيباً غريباً بأن تبدّلت بها جميع حالتهم الظاهرية والباطنية، وسلكوا سبيل الله، الضالين من السنوات، واستيقظوا من نوم الغفلة المديدة، والذين كانوا مشركين صاروا موحدين، والذين كانوا كفار آمنوا، والذين كانوا عابدي الصنم صاروا كاسري الصنم، والذين كانوا ضالين صاروا هادين لصراط الله تعالى، لم يبق اسم الحمية الجاهلية والعصبية الوحشية فيهم، ومحتْ وذهبت الخصومات الأسريّة، والعداوات الصلبيّة القديمة، وخلا العقل من الغرور والتكبر، وملأت قلوبهم من الصبر والتوكل والحلم والأناة والزهد والتقوى وجميع الصفات الأخلاقية، قام تعلميه وبتعليمه جماعة موحدة طيبة الطبيعة، هادين وصافي القلوب، الذين بجهودهم اندرس صوت الشرك وعبادة الأصنام، الذي كان له دوي

في شبه جزيرة العرب، وجاء في بدله منادي الله تعالى بلا شك وبلا قيل، وسلك الأصنام سبيل العدم، وانمحت آثار أمكنة عبادة الأصنام، وبردت أمكنة النيران، التي كانوا يعبدونها من دون الله، وانكسر طلسم التثليث، وبطل التصور الباطل لعبادة الأوهام، "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا".

أما يعلم من هذا ثبوت هذا الأمر المشاهد والواضح بأنه صلى الله عليه وسلم في الحقيقة الرسول الصادق (الطبيب الحاذق) ومؤيد من جانب الله تعالى، وإلا لم يكن من فعل وقدرة الإنسان أن يحدث في العرب انقلاب عظيم في حالتهم الروحانية والأخلاقية، وأن يتبدّل حرب الظالمين الذين يحاربون ويخاصمون على كل قول وفعل بأن يقيدهم ويسلكهم في قرابة الأخوّة، وأن ينقي قلوبهم من العداوة القديمة الصلبية والحسد، حتى لا يبقى لها أثرا مّا، بل يجعل في الدنيا نموذجا للأخلاق والإنسانية، وبرؤية التأثر العجيب والنتائج المحيّرة لهداية النبي صلى الله عليه وسلم، المنكرون أيضا معترفون بهذا الأمر أن هذا الأمر كان خارجا في الحقيقة عن القدرة البشرية، فلهذا يقول أحد منهم: أن الرسالة التي جاء بها - النبي صلى الله عليه وسلم- كانت رسالة حقة صادقة، وكان مخرجها الذات الذي لم يحصل ولم يبلغ أحد كنهه وغايته، ويكتب أحدهم: "وكان هذا أثر تعليم القرآن بأن تبدل سكاني العرب، كأنهم سحروا"، ويقرّ المتعصب الشديد من متعصبي النصارى: بأنه من ابتداء الدين المسيحي إلى وقت النبي صلى الله عليه وسلم لم تهيج ولم تحرض الحياة الروحانية، كما هاجت وحرضت بتعليم الإسلام، فهل بعد مثل هذه البراهين القاطعة، والدلائل الواضحة، يظهر رجل محروم البصيرة بأن مع أنه يعد نفسه مريضا، ويكون متمنّيا للرجوع إلى نبّاض وطبيب ماهر، ولكن هو يصرف وجهه عن هذه المآثر المستنيرة لطبيب العرب (بل لطبيب العرب والعجم) وأن لا يخضع رقبته بلا قيل وقال، وبلا ريب وتردد، أمام تجويزه وتشخيصه (الذي هو في تجويز الله تعالى وتشخيصه بلا ريب) وعلى الأقل من القليل أن لا يعمل بتدابيره ومعالجاته وحمياته، عدة أيام للتجربة وتجربة.

ترك النقل والبحث عن العقل:

ويقول العارف بالله الشيخ محيي الدين ابن العربي في مثل هؤلاء عمياني الباطن (الذين إلى الآن يضيّعون العمر العزيز متشتّتين عبثا وحائرين وسدى في بحث الدلائل المغلقة والعميقة لتسليم مثل هذه الصداقة البديهية، ولا يرفعون أبصارهم إلى الواقعات التي هي منيرة ومضيئة أكثر من النهار): والأمر العجيب عندنا أن الإنسان في كل أمر يترك الله تعالى، ويقلّد فكره ونظره، والحال أنه يعلم أن فكره هذا أيضا أمر حادث ومخلوق مثل ذاته، وقوة من تلك القوى التي أودعها الله تعالى في الإنسان، ويعلم أن الله تعالى جعل القوة المفكّرة خادمة للعقل الإنساني، ولكن مع ذلك العقل بذاته يمشي ورائها خادما لها، وعلى أنه يعلم أن القوة المفكرة التي تعطيه أي شيء، هي لا تتجاوز فيه من مقداره وحده، وعاجز من أن يضع القدم في حدود القوة الأخرى، مثلا بأن تعمل عمل القوة الحافظة أو المصورة، أو تقام مقام القوة المتخيلة، أو تعمل عمل أحد الحواس الخمسة الظاهرة (اللمس، والطعم، والشم، والسمع، والبصر).

خطأ العقل:

هذا كله موجود، وضيق الحدود والاختيارات للقوة المفكرة معلوم للجميع، ومع ذلك كم هذا الأمر محيّر أن العقل الإنساني في معرفة ربّه مصرّ على تقليد هذا الفكر الناقص، ويجتنب سوّيا من تقليد البيان الذي بيّنه الله تعالى بنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بنسبته، والأغلاط المنشورة بالطرق المختلفة في العالم الأعجب فيها غلط العقل هذا، ومن الغريب أن ما سوى ذلك بعض الناس الذين نوّر الله تعالى أعينهم البصيرة، كل صاحب فكر مبتلى في هذا الغلط العام، نعم يعلم أصحاب البصيرة جيّدا بأنه قد جعل الله تعالى لكل شيء فطرة خاصة، وباعتبار هذه الفطرة الخاصة حدّ لعمل ذلك الشيء وحركته حدا، - ف - مثلا فطرة القوة السامعة (الأذن) لا تستطيع أن تتجاوز من إدراك المسموعات (الأصوات) والعقل الإنساني محتاج فقط في هذه الحلقة إليها، وطالب للعون منها في معرفة الأصوات، وقطع

الحروف وحذفها وزيادتها وتغيرات الألفاظ، وفي تقسيم اللغات، فالعقل الإنساني بذريعة القوة السامعة يفرق في أصوات الطيور، وصوت الهواء، وصوت حركة مصراع البيت، وخرير الماء، وضجيج الإنسان، وفي أصوات الحيوانات الأخرى ونطقها، وإلا من أين هذه القدرة في العقل الإنساني بنفسه، بأن يقيم الامتيازات في هذه الأشياء فيما بينها.

وهكذا تصور وتخيّل القوة الباصرة (العيون) بأن دائرة عملها محدودة على رؤية المبصرات (الأشياء القابلة للرؤية) فقط، يعني بغير معونتها لا يمكن للعقل عادة، وليس من الممكن للعقل عادة بغير معونتها، افتراق الأخضر من الأصفر، والأصفر من الأبيض، والأسود من الأبيض، وهكذا افتراق كل لون من اللون الآخر، هكذا حال ما سوى هذين القدرتين لجميع تلك القوى التي هي مشهورة باسم الحواس، والقوة الخيالية التي تكون لها احتياج في إعمالها إلى الحواس الخمسة، لأن التخيّل يتعلق بالأشياء التي تحصل بذريعة الحواس فقط، وعلى هذا القياس إن لم يحفظ القوة الحافظة الأشياء الحاصلة بالخيال، فلا يبقى شيء في خزانة الخيال، فبهذه الحيثية كما أنها محتاجة إلى الحواس الخمسة، هكذا ليست بمستغنية من القوة الحافظة، ثم تحدث للقوة الحافظة مواقع التي بحيلولتها بينها وبين الخيال، تكون باعثة لضعف القوة الحافظة، ولفوت الأمور الكثيرة منها، فلهذا يحتاج إلى قوة مذكّرة التي تكون ناصرة للقوّة الحافظة، فتذكّرها الأمور التي ذهلت عنها، أو تذهل عنها.

ثم بعد هذا الجميع تتوجّه القوة المفكّرة إلى الخيال؛ لكي تتركّب الأمور الحاصلة بالخيال بتوسط القوة المصوّرة، بأن يوجد منه دليل لدعوى مّا، الذي ينتهي إلى هذه المحسوسات والبديهيات التي هي مركوزة في جبلّة الإنسان، وبهكذا إذا يقيم الفكرُ الدليلَ على صورة حسنة، فالعقل الإنساني الآن، ينطبق هذا الشيء الجاهز على الدعوى، ولكن في الوصول من هنا إلى هاهنا جميع القوى التي كانت لها دخل مّا، ليس فيها أية التي لا تكون في عملها موانع كثيرة، ومساغ للأقسام الكثيرة للأخطاء والأغلاط، والتي لا تبقى الضرورة إلى معيار وميزان التي تميّز الصحيح من الفاسد، واللبّ من القشر.

فتدبر أنت بنفسك أن العقل في ذاته كم هو جاهل، وعاجز، ومحتاج إلى القوى الأخرى، وظهرت على الجميع الأغلاط التي تحدث لكل قوة من هذه القوى، وإلى الحد المحدودة لدائرة عملها أيضا.

ولكن إذا وعندما يحصل له قول مّا من هذا الطريق المخدوش والمملوء خطراً، بعد إصابة الصدمات الكثيرة، وفي مقابله في الجانب الآخر يخبر الله عز وجل بنفسه خبرا، فيقول رادّا له بأنه ردّه فكري وتدبري، وبأن تدبري وفكري قد ردّه، الله أكبر! كم العقل جاهل من رتبة الله تعالى، بأن تساهل الجرح على الله تعالى في تقليد فكره الناقص، وإنك علمت أولا بأنه ليس عند العقل بذاته علم شيء آخر بأي نوع كان، وعمله فقط قبول العلوم المعطاة من الحواس الخمسة والقوة الخيالية والمصورة، وعلى هذا القياس القوى الأخرى أيضا، فكان المناسب له في مثل هذه الحالة أشد مناسبة أن يبسط يد السؤال إلى الله تعالى وينال عطاياه، ويضعها على الرأس والعين، بدل أن يمدّ يد السؤال أمام خدامه؛ القوة الفكرية وغيرها، وبدل أن يقبل عطاياهما.

عجز العقل:

وأيضا لما أنه علم أن فكره مقلّد لخياله، والخيال لحواس الخمسة، ومع هذا يحتاج لنصرة نفسه إلى القوة الحافظة والمذكرة، وعلم أيضا أن هذه القوى جميعا لا تستطيع أن تضع قدماً واحداً خارجا من حدود فطرته ودائرة عمله مثلا: لا يستعمل الأذن في إدراك الحسين والقبيح، والعيون لا تفهم حسن الأصوات وقبحها، وامتياز الرائحة الجميلة من الرائحة الكريهة خارج من حدود عمل اللسان، ولا عمل للأنف في تفريق الحلو والمرّ، وعلى هذا القياس لا يعلم العقل باعتبار ذاته شيئا سوى بعض تلك الضروريات المعدودة التي يعلمها فطرة، فمع مثل هذا الضِيق الميداني والعجز لجميع القوى، لأيّ وجه لا يقبل عقولنا قول شخص الذي هو قائل بقوة أخرى في الإنسان سوى القوة المفكّرة، التي أحكامها تكون عالية عن أحكام القوة المفكرة، ويجدها في نفسه أهل الله (الملائكة) والأنبياء والأولياء

الكاملين بموهبة الله عز وجل، باستعمال تلك الطريق التي كتبها وحررها حاذقي ومجربي هذا الفن، والتي جميع الكتب السماوية بإخبار وجودها ناطقة بالصوت المرتفع العالي.

فلهذا ينبغي لكم أن لا تعتنوا شيئا في اتباع الأحكام الإلهية لعقولكم (الناقصة السقيمة) وعدّوا تقليد الخالق في مقابلة المخلوق أفضلا؛ لأن كثير التعداد والعدد من الأنبياء والأولياء، بل جميعهم قبِلوا هذه الأشياء، وآمنوا بها وصدقوها، واختاروا هذا دائما بأن تقليد الله تعالى بنفسه في معرفته أولى وأنفع من تقليد أوهامهم وأفكارهم، ثم أيها العاقل المنكر من الأحكامات الإلهية ماذا حدث لك بأنك لا تسمع في معرفة الله كلام الله بذاته، وكلام عباده المتقين والأولياء، وتتحير في اتباع خيالاتك وتصوراتك؟

انظر لما علم سامعي يا أيها الذين آمنوا آمنوا، أن المطلوب إيمان آخر أيضا سوى الإيمان الحاصل لنا بالدلائل والأفكار، فاختاروا معا طريقة الرياضة والخلوة والمجاهدة، وبقطع التعلقات المُنسية لله تعالى والغافلة عن الله سبحانه أصلا وأساسا، تنحّوا من الدنيا وهم فيها، وباخلاء قلوبهم من جميع الخصومات، وبتطهيرهم وتنقيتهم قلوبهم من شوائب الأفكار، توجّهوا خالصا لله تعالى، لأنهم علموا هذا الطريق من الأنبياء والمرسلين، وهم سمعوا أن العبد إذا يتوجه بجميع القلب إلى الله تعالى، فالله سبحانه يلقي عليه ظلّ العطوفة والرحمة، ويجعله في كنفه، ففهموا منه هذا أن هذا الطريق للذاهبين إلى الله تعالى أقرب من طريق الفكر؛ لأن الله تعالى نادى بنفسه على لسان رسوله أن: من أتاني يمشي أتيته هرولة، وأن ليس في السماوات ولا في الأرض هذه السعة أن يتحمل عظمتنا - عظمة الباري تعالى - وجلالنا، بل هو فقط قلب المؤمن، فبناءاً على هذا هؤلاء الناس توجهوا بجميع قلوبهم في جناب الله تعالى، وتركوا أعمال جميع القوى والأفكار، ففي هذا الوقت ألقى الله تعالى ضوء نوره وعلمه الصادق على قلوبهم، وجعلهم خالصين ومحبّين له، ثم ماذا كان، تلاشت جميع تلك الضعف للفكر والنظر، ونسوا أمام أقوال وقوانين الخالق الأكبر، القوانين التي وضعوها من عقولهم.

التفاوت في العقول:

تفكر أنت بنفسك وأنصف أنه لو جعل كل شخص مُجازاً بأن يسلك قانون عقله الشخصي، كما يريدون مدعي الحرية الفكرية في هذه الأيام، فكيف وكم يكون الفساد في الأرض، وكم تصعب حياة الإنسان في اضطراب آلاف القوانين المصنوعة، (التي يستطيع أن يصنعها كل فرقة على معيار فكره، وحساب فهمه) وكثير من الناس يقولون أنه إذا تقع المزاحمة والمخالفة في العقل والنقل، فينبغي أن يكون لنا اختيار تقديم أحكام العقل على تسليم النقل الصحيح؛ لأن العقل هو الذريعة الأصلية في تسليم النقل، فمعاذ الله معنى جعل وتصيير العقل غير معتبر، - بـ - أنا صرنا سيىء الظن من العقل والنقل كليهما، ولكن عرفت جواب هذه الشبهة من تحقيقنا السابق بأحسن وجه، لأنا قلنا بالدلائل أنه لا يمكن أصلا التعارض في ما بين العقل السليم والنقل الصحيح، نعم لو صار سلامة العقل أو صحة النقل مخدوشا، فيكمن حينئذ التعارض بين العقل والنقل، ولكن يكون من أول فرائضنا في ذلك الوقت أن نجتهد إمّا في خلاص العقل من المرض، وأن يكون ويصير العقل سليما، وإما أن تصل الذريعة الوثيقة في ثبوت النقل، ودونه خرط القتاد.

وجميع التفصيل لهذا الجواب كتبه شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الثمين والضخيم "بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول" - وهو مطبوع على هامش منهاج السنة من مصر - والذي تركنا اقتباساته المنتخبة قصدا للتطويل ملتمسين في الأخير.

هل الفكر والعقل لغو:

بأن الذي بيّنّاه إلى هاهنا في هذه المقالة، ليس منشأه قط وأبدا بأن الفكر والاستدلال عبث محض، وشيء لغو، أو أن التعرض إليه إثم شرعي، ولكن نعم لا نجوّز لبشر بأن يجعل عقله الشخصي وفكره الناقص أصل الأصول، ويجتهد في انطباق تعليمات الأنبياء - عليهم الصلاة والتسليم - الطيبة والواضحة والصحيحة

والصادقة والأعلى والأولى عليه، والذي ينفر عنه ضميره من باطنه أيضا في أكثر الأوقات، وعلى خلافه لا بد إلى الغاية أن الإنسان يقرّر أقوال الله تعالى والرسول أصلا، ويجعل معلوماته العقلية تابعة لها، وما الذي يقولهما يتصوره إكسير الشفاء قائلا سمعا وطاعة، في حق أمراضه الروحانية، ويجعله على الرأس والعين بلا حجة وتكرار ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

تنبيه: ما كتبناه في هذه الرسالة بالاختصار الجامع والمتانة والمعقولية عندنا، كان الجهد الكبير (كما سيحسّه وسيحس به القراء) على صحة العقل وسلامته، ولكن لم نبحث مطلقا على قواعد وشرائط صحة النقل وضعفه، الذي سيكفي له أولا إن شاء الله تعالى مطالعة كتب علم أصول الحديث، ولو ساعدنا الوقت وأعاننا القادر المطلق، فسنكتب رسالة مستقلة حول هذا الموضوع، مقدّمين لها لأهل الدولة، الذي يكون فيها تبصرة مبسوطة مفصلة على رسالة مولانا عبد الله العمادي في علم الحديث، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الراقم: شبير أحمد عثماني، عفا الله عنه.

دار العلوم ديوبند، ٢٢ ربيع الثاني ١٣٣٣هـ . تمت بالخير.

مرآة الكتاب/ مفتاح الرسالة/ فهرس الموضوعات

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الإهداء ٣

تقريظ العلامة الفهيم، والمحقق النبيل، مولانا فيض الرحمن الحقاني، المدرس بدار العلوم الحقانية، أكورة ختك، باكستان ٥

تقريظ صاحب التصانيف الكثيرة، والمؤلفات العديدة، سماحة الشيخ مولانا عبد القيوم الحقاني ٧

قصيدة مدحية للعقل والنقل ولترجمته العربية، من سماحة الشيخ الكريم مولانا "فضل الهادي" ٨

مقدمة التعريب ٩

ترجمة المؤلف ١٤

مولده ونشأته ١٤

بدء دراسته وكبار شيوخه... ١٥

تفوّقه وشدّة ذكائه وتوظفه مدرّسا... ١٥

تدريسه صحيح مسلم ثم البخاري ١٦

مشاركته في السياسة... ١٧

خدماته في الدعوة والإرشاد ١٨

كلمات من ثناء العلماء الأكابر عليه ١٨

تأليفه ومقالاته وخُطَبُه... ٢٢

بعض أخباره المنثورة وذكرُ وفاته ٢٥

مقدمة المصنف ٣١

العقل والنقل للعلامة شبير أحمد العثماني ٣٦

اختلاف العقل والنقل ٣٧

الإمام الغزالي ومسألة العقل ٣٩

أبو علي سينا والعقل ٤١

مذهب الطوسي.. ٤٢

مذهب ابن رشد الأندلسي ٤٣

الإمام ابن تيمية والفلسفة.. ٤٣

رسالة ابن العربي للرازي.. ٤٤

مسلك المجدد لألف الثاني ٤٤

ابن خلدون والعقليات ٤٥

العلوم الكشفية وابن خلدون ٤٦

قول الشيخ شهاب الدين السهروردي.. ٤٦

مذهب علاء الدين الطوسي ٤٧

ثبوت نقصانات العقل ٤٧

الإمام الشاه ولي الله والعقليات ٤٩

الأشياء المشتركة بين الإنسان وغيرها من الحيوانات ٥٠

الأمران المميّزان للإنسان من غيره.. ٥١

عقل الإنسان كالمرآة.. ٥٢

المذهب الحق والعقل.. ٥٤

العقل والنقل كل منهما محتاج للآخر ٥٥

كلام العلامة القاسم النانوتوي وثناء المؤلف عليه ٥٧

العقل السليم والسقيم ٦٠

أمثلة على اتباع مخالفة العقل ٦٢

ثناء المؤلف على تأليفات العلامة القاسم النانوتوي ٦٥

العقل ومعرفة الحسن والقبيح.. ٦٧

لطافة الأرواح.. ٦٨

الفيض الربّاني على الأنبياء والمرسلين ٧٠

الثبوت العقلي للنبوّة ٧١

النتائج الحاصلة من تقارير العلامة النانوتوي................................ ٧٤
اعتراض الأستاذ سيّد أحمد خان ٧٥
سؤال من الأستاذ سيد أحمد.. ٧٦
الاعتماد على الطبيب الروحاني.. ٧٨
معرفة الطبيب الروحاني.. ٨٠
أثرات البعثة النبوية لسيدنا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.................. ٨١
ترك النقل والبحث عن العقل ٨٣
خطأ العقل ٨٣
عجز العقل ٨٥
التفاوت في العقول.. ٨٧
هل الفكر والعقل لغو ٨٧
فهرس المحتويات ٩١